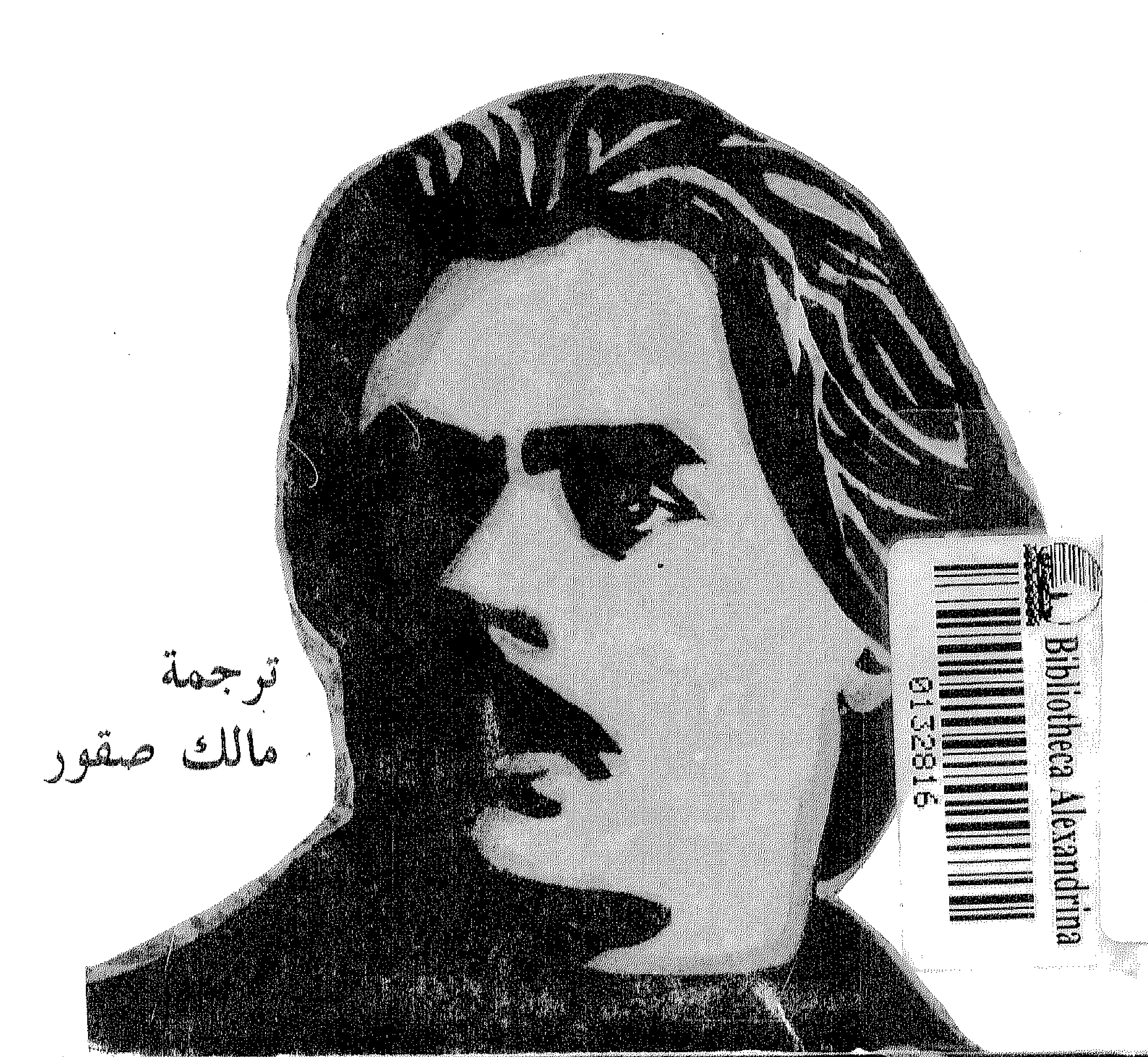
مكسيم غوركي

كيف تعلمت الكتابة



ترجمة
مالك صقور

كيف تعلمت الكتابة

دار الحصاد للنشر والتوزيع
دمشق برامكه جانب سانا
هاتف : ٢٤٦٣٢٦
ص. ب : ٤٤٩٠

تنضيد وإخراج
القسم الفني في دار الحصاد

مكسيم غوركي

كيف تعلمت الكتابة

ومقالات أخرى

ترجمة مالك صقور

مكسيم غوركي

١٨٨٦ - ١٩٣٦

إن احداً لم يكن بوسعه ، أن يعرف أو يتنبأ لذاك الفتى الاشعث الطويل ، النحيف ، ذي الاكتاف العريضة ، أصفر السحنة ، الصبي المتشرد ، الذي يرتدي معطفاً فضفاضاً ، أنه سيكون ذائع الصيت ، وأن اسمه سينطلق خارج حدود وطنه إلى انحاء العالم ، كواحد من اعظم الكتاب ، الذين وقفوا حياتهم لخدمة الانسانية ، ومن أجل تحريرها ، من ربقة الظلم والاضطهاد ، والتعسف ، ومن أجل الحرية . . إنه الكسي مكسيموفيتش بيشكوف .

* * *

ولد الكسي مكسيموفيتش بيشكوف في ٢٨ أذار عام ١٨٦٨ في مدينة نيجني نوف غورد (مدينة غوركي حالياً) . وبعد أربعة أعوام ، مات أبوه بوباء الكوليرا . وقبل أن يتم العاشرة ، ماتت أمه (فارفارا فاسيلفتا كاشيرنا) . وهكذا ، قدر للفتى الكسي أن يعيش اليتم ، ويقذف به بعيداً على دروب التشرد والجوع . فعاش في كنف جده ((فاسيلي كاشيرين) ، والذي وصفه غوركي ، فيما بعد ، أنه كان قاسياً جداً ، غليظ الطباع . وما أن أتم العاشرة ، حتى قال له جده : " والآن ، ياالكسي ، انك ، لست ميدالية على صدري . قم واذهب الى الناس" . ومن تلك اللحظة ،انطلق الصبي ، وانخرط في صفوف الناس ليعاشر اصنافهم ، وليعاين أفعالهم ، وليختبر طبقاتهم ، وليذوق مبكراً جداً ، مرارة العيش وشظفه ، وليكتشف بنفسه رويداً رويداً ، قساوة الحياة ، وشناعتها ، وليعاني من ظلم المتسلطين على رقاب الناس . هذه الحياة الشنيعة القاسية ، أيقظت في روح الصبي المراهق اليوشا بيشكوف الكره الشديد لكل مظالم الأرض ومفاسدها ،ودفعته للتمرد ، وليردد طويلاً : "

جئت الى هذا العالم كي لأوافق". وليحب فقراء القاع، والالتزام بهم والدفاع عنهم.

* * *

بدأ غوركي حياته العملية، أجيراً صغيراً، في مخزن لبيع الأحذية، ومن ثم انتقل ليعمل غسال صحون على باخرة. وكان معلمه على الباخرة، الطباخ ميخائيل اكيموفيتش سموري، الذي ايقظ فيه حب الكتب والأدب. فالطباخ هذا، كان بحوزته صندوق مليء بالكتب. يحمله أنىّ ذهب، وكان ذلك الصندوق، على حد تعبير غوركي: " أعجب مكتبة في العالم". ضمن هذا الصندوق مختارات جيدة، وجميلة من الكتب، التي اختارها صاحبها بدقة.. هذه الكتب، فتحت أمام الصبي آفاقاً واسعة، وإن كانت جدته في صغره عّرفته بالشعر الشعبي، فإن (سموري) جعله يحب الكتب طوال حياته. ومن خلال الكتب - كما قال غوركي: " عرفت الطمأنينة الروحية، وجعلتني أثق بنفسي، وعرفت، أني لست الوحيد على هذه الأرض، وأني لن أضيع". بعدها، انتقل ليعمل صانعاً في ورشة ايقونات، ومن ثم عاملاً في سوق المعرض في مدينته، كما وعمل ممثلاً ثانوياً في المسرح، وبائع شراب (الكفاس). لينتقل بعدها الى عمل آخر تماماً، فيعمل خبازاً، وعتالاً، وبستانياً، كما وعمل قليلاً في جوقة غناء. واخيراً، انصرف الى جمع الخرق والاسمال مع المتشردين، وصار يجوب معهم انحاء روسيا في سني المجاعة الكبيرة، التي حاقت بروسيا. في تلك الاثناء، هب كل من الكاتب العظيم ليف تولستوي، وتشيخوف، وكورلينكو، لاعاثة المحتاجين والجوعى. الذين يموتون في الطرقات. يومها لم يكن غوركي، قد اصبح كاتباً، كان مجرد جائع، متشرد على الطرقات. لقد أصيب الصبي بنوبة يأس قاتلة، فحاول الانتحار، ليضع حداً لهذه الحياة. لكن الرصاصة لم تصب القلب، بل اصابت الرئة، وقدر له أن يعيش. هذه المحاولة سببت له العار طويلاً، والخجل الشديد كلما تذكرها.

* * *

في عام ١٨٨٤ رحل الكسي بيشكوف الى قازان، وهناك حاول الانتساب الى جامعتها، لكنه لم يوفق فظروف الحياة حولته الى مواجهة د روس أخرى، كانت

أصعب ، وأقسى مما تصور هو ذاته . ومن جديد شرع بالتجوال في أرجاء روسيا الى أن حط رحاله ، أخيراً ، في مدينة تيبليسي - في القفقاس . وهناك ، كتب قصته الأولى : " ماكار تشودرا" . في حينها ، لم يجرؤ على التوقيع باسمه الصريح . فوقع باسم مستعار : " غوركي " ويعني " المر " . ومن حينها ، اختفى والى الابد اسم اليوشا بيشكوف ، واشتهر ، حتى يومنا باسم مكسيم غوركي . وهكذا ، بدأ غوركي حياته الابداعية ، شاقاً طريقه بصعوبة . بدأ رومانتيكيا ، ليتحول الى الرومانتيكية الثورية ، ومن ثم الى الواقعية . . فالواقعية الاشتراكية .

في تلك المرحلة من حياته ، كتب غوركي عن حياة الناس الذين التقاهم في الطرقات ، وتشرد معهم ، وعاش بينهم في الملاجىء ، كما وكتب الحكايات والاغنيات .

بعد قصته " ماكار تشودرا" ، كتب غوركي : " الجد أرخيب ولوفكا" . و"أغنية عن الصقر" و "تشلكاش" و " كونوفالوف " و " ستة وعشرون رجلاً وفتاة " و " العجوزايزرغيل" . وقصصاً أخرى كثيرة . عّبر من خلالها عن الحرية ، وسعادة الشعب المرتقبة . ففي " أغنية عن الصقر " يقارن بين الصقر والحية . إذ يبين حكمة الصقر وبطولته ، واستعداده للتضحية بنفسه من أجل الجمال ، والحرية ، والعطاء . في حين صور أنانية الحية ، وحقدها ، وسمها ، وضيق أفقها . فالقارىء يفهم من هذه المقارنة ، أن قصته تلك ، أو بالأحرى ، حكايته ، غنيّة بالرمز الانساني الجميل ، الذي يتضمن " حكمة الحياة" . وفي تلك المرحلة ، التي كتب فيها قصته ، لم يكن غوركي يرى آفاق الثورة المقبلة . لهذا ، يموت الصقر في نهاية القصة ، وعندما تسأله الحية : " هل أنت تحتضر ؟" - نعم ، احتضر ، وأخذ يتنفس بعمق ، وتابع : لقد عشت حياة كريمة . . وأنا أعرف السعادة ، ولقد قاتلت بشجاعة . ورأيت السماء . وأنت ، لن تريها عن قرب . آه ، ايتها المسكينة" .

في عام ، ١٨٩٤ كتب قصته " العجوز ايزرغيل " ونشرها ، في عام ، ١٨٩٥ وهي اسطورة . مضمون هذه الاسطورة ، تدين الفردية ، وتنشد البطولة . من أجل الحرية ، وسعادة الشعب . في هذه الحكاية - الاسطورة ، يبرز غوركي نموذجين : نموذج الانسان الأناني ، المتغطرس ، المتكبر ، المتمثل بالشاب (لارا) ،

ونموذج الانسان الرائع المضحي بنفسه في سبيل الشعب ألا وهو (دانكو) .

لقد ارتكب (لارا) جريمة ، اذ قتل فتاة ، لأنها لم تقنع به ، فأراد وجهاء القوم الانتقام منه ، وراحوا يفكرون بنوع العقوبة التي تناسب هذا المتعجرف المتكبر . . فكروا أن يقتلوه ، الا أن القتل عقوبة سهلة . أرادوا أن يربطوه بذيل الفرس ويجروه ، ثم عدلوا ، ثم قرروا ، أن يطلقوا سراحه . وليعش منبوذاً . وحرّموا على الجميع أن يتحدثوا إليه أو يختلط هو معهم . وعندما لم يعد بوسعه أن يعيش هكذا وحيداً ، أراد أن ينتحر ليتخلص من هذه الحياة ، فلم يستطع : (ليس له حياة ، والموت لايأتيه) وكانت تلك هي أقسى عقوبة نزلت به . أما دانكو ، فاننا نرى العكس تماماً . إذ قدم غوركي النموذج الأخر المقابل . نموذج دانكو ـ الشاب الجميل ، الشجاع ، الذي سلمه قومه زمام الأمور فيقودهم الى الامام وعندما تاه القوم وسط الغابة في ليل لانهاية له ، وسط مستنقعات هائلة تتحول أغصان الاشجار فيها الى أفاعي ، وما عاد لهم مخرج . حمّلوه مسؤولية فشله ، ووصفوه بالتافه ، وقرّروا قتله . لكن دانكو ، كان يحبهم ، ويريد لهم الخير ، فما كان منه ، إلا أن شق صدره ، وامتشق قلبه ، ورفعه عالياً . وسطع قلب دانكو ،سطوع الشمس ، وأضاء الغابة كلها بهذا المشعل ، وصرح بهم : لنتابع المسيرة ، حاملاً قلبه ـ المشعل مضيئاً به الطريق للناس . . . لقد أجاب غوركي في هذه الاسطورة ، عن السؤال التالي : أين تكمن سعادة الانسان ؟ وكان الحواب ، أن السعادة في التضحية وخدمة الشعب ، والعيش بين الناس ، وليس في الغطرسة ، والتكبر ، والابتعاد عن الناس .

* * *

في عام ١٨٩٩ صدرت رواية (فوما غوردييف) ، وقد أثارت اهتماماً واسعاً ، مثلما أثارت رواية ليف تولستوي (البعث) . حيث صور روسيا القيصرية وعالم الرأسمال فيها فاضحاً فيها البرجوازية ، وسلطة القرش .

وفي عام ١٩٠١ صدرت رواية " الاصدقاء الثلاثة " وفي هذه الرواية . وفي (فوما غوردييف) يكون غوركي قد انتقل من الرومانتيكية الثورية ، الى الواقعية ، متابعاً فيها مابدأه بالأولى ، وهو فضح الواقع الشنيع لروسيا القيصرية . ابطال الرواية الثلاثة : (ياكوف فيليمونوف) ـ انسان هادىء ، مسحوق ، ابن صاحب مطعم . و

(باشكا غراتشيف) محكوم عليه بالاشغال الشاقة . وثالثها (ايليا ليونيف) القادم من القرية . هؤلاء الثلاثة ، يحلمون بالانعتاق من الحياة الشنيعة ، القذرة ، والانطلاق الى حياة نظيفة جميلة . وتنضم اليهم (ماشا) ابنة الاسكافي . هذه الفتاة ، التي قدر لها ان تعيش حياة عابثة على الرغم من صغر سنها . وهكذا تمر الايام ، وتختلف مشارب الاصدقاء الثلاثة . فياكوف الطيب البسيط ، يبقى أبداً خائفاً من مظالم الحياة ومن المستقبل المجهول . وهو يحلم بالدير ، فيتحول إلى المطعم ، يقف خلف البوفيه في جو خانق من السكر والعربدة ، في مطعم أبيه . أما ايليا ليونيف ، الحالم بالحياة "النظيفة" يشق دربه الى "العلاء" و "النظافة" لكنه ممزق بين رغبتين متناقضتين : التعطش الى المال والغنى ، وحلمه بالعدالة . وهذا مستحيل . كمن يرغب في جمع الماء والنار . إلا أن الدرب الذي سلكه يؤدي به الى الجريمة . فقتل المرابي العجوز ، ولم يستطع أن يتخلص من عذاب الضمير . وهكذا ، يكتشف بنفسه أن الحياة ، في المجتمع الراقي ، يسيطر عليها الكذب ، والنفاق ، والرياء . وأن الحياة التي ينشدها ، الحياة الشريفة النظيفة ، غير موجودة . ويبقى (باشكا غراتشيف)الوحيد من بينهم الذي التحق بالمثقفين ، الثوريين . ويبقى منسجماً مع نفسه . والجدير بالذكر ، أن ملامح باشكا غراتشيف ، تشبه ملامح الكاتب نفسه . والذي طاف أرجاء روسيا بحثا عن عمل يعيش منه . ولم يسلك درب رفيقيه . بل اهتم بالثقافة ، واجتذبته حلقات الثوريين . وكانت تلك المرحلة التي بشرت بظهور بافل فلاسوف ، ـ بطل ـ رواية (الأم) . الرواية التي بشرت بالمرحلة الجديدة ، ليس في أدب غوركي ، بل وفي روسيا ، وفي كثير من انحاء العالم .

* * *

في المرحلة الجديدة ، في مطلع القرن العشرين ، ومع اشتداد الصراع الطبقي ، في روسيا القيصرية ، ونهوض الطبقة العاملة ، وبروز البروليتاريا بقوة على المسرح السياسي ، وفي فترة التحضير لثورة ١٩٠٥، أصدر غوركي روايته الشهيرة "الأم" . والتي لعبت دورا هاما . في نوعية الطبقة العاملة ، وتنويرها . ولن نتوقف هنا ، بالتفصيل عن دور هذه الرواية الرائدة . ليس في روسيا ، بل في العالم كله ، والتي كانت ، نقلة نوعية هامة على درب الابداع ، والنضال معاً . لأن القارىء عرف

الكثير عنها وعن بطلتها الأم ، بيلاجي نيلوفنا ، وابنها المناضل بافل فلاسوف . والتي كانت من أولى شذرات الواقعية الاشتراكية ، والتي أثارت جدلا كبيرا ، ومازالت . . وإن كان في هذه الايام ، يشتم رائحة التنكب إلى الماضي ، وبدء الهجوم على غوركي في موطنه من قبل الصهاينة ، فلا يعني ، أن هذا الكاتب ، المبدع ، المناضل ، قد فقد اهميته . وإن كانت بعض ابداعاته ، انعكاساً لمرحلة النهوض الاشتراكي ، فلا يعني انها كانت مرحلية مؤقته . وسنترك القارىء يتعرف بنفسه على بعض مقالات غوركي في الأدب والفن : كيف تعلمت الكتابة ، ومن ثم الواقعية الاشتراكية ، التي فهمهاالغير ، لا كمافهمها هو ، الذي يعد مؤسس هذه الطريقة الفنية .

كرتو ١٩٩٠

مالك صقور

كيف تعلمت الكتابة

في كل المدن ، حيث حالفني الحظ بالتحدث اليكم ، سألني الكثيرون شفهياً وكتابياً : كيف تعلمت الكتابة ؟ وجه إلي هذا السؤال من أقاصي جمهوريات الاتحاد السوفياتي ، وخاصة الشباب المبتدئون بالكتابة . واقترح علي الكثيرون تأليف" كتاب عن كيفية تأليف القصة" . أو " تأليف كتاب الادب" أو" النظريات الادبية" . كتاباً كهذا ، لااستطيع كتابته ، حتى ولا أجرؤ على ذلك . إلا أن هناك كتباً مشابهة ، علماً انها ليست جيدة . ولكن مع ذلك ، لاتخلو من الفائدة .

ومن الضروري للمبتدئين بالكتابة ، أن يعرفوا تاريخ الادب ، وكتاب "كليتوريال" تاريخ الادب" مفيد لهذا الغرض . فهذا الكتاب يعرض تطور الابداع "الشعبي" الشفهي ، و"الادبي الكتابي" . يجب معرفة تاريخ تطور كل عمل من الاعمال ، فلو أن كل عامل عرف تطور العمل في الفابركا ، أو المصنع ، لكان عمل العمال أفضل بكثير مما هو عليه . إذ أنهم يدركون بعمق المعنى التاريخي والفني لمهنتهم . من الضروري أيضاً ، معرفة تاريخ الادب الاجنبي ، لأن الابداع الأدبي ، من حيث الجوهر ، هو واحد في كل بلدان العالم ، وعند كل الشعوب . والامر هنا لايتعلق بالعلاقات الشكلية والخارجية ، ولا ببوشكين الذي أعطى غوغل موضوع روايته "النفوس الميتة" ، و"رسائل نادي بيكفيكسكي" للكاتب ديكنز" ، بل المهم أن ندرك تماماً ، أنه منذ القديم ضفرت في كل مكان ، وتضفر ، الانشوطات" من أجل الاحاطة بالروح البشرية" ، وأنه دائماً ، في كل مكان ، يوجد أناس ، وقفوا ويقفون اعمالهم وأهدافهم لتحرير الانسان من ربقة الخرافات والاباطيل ، والاوهام . من المهم ، معرفة أنه في كل مكان أرادوا ، ويريدون طمأنة الانسان . وأنه دائماً وفي كل مكان ، وجد متمردون ، سعوا ويسعون من أجل قلب الواقع الشنيع القذر . وفي

النهاية ، من المهم جداً معرفة أن هؤلاء المتمردين أضاؤواالطريق للناس ، ودفعوهم عليها إلى الامام . وناهضوا ناشري الدعايات المطمئنة ، المسكنة للواقع المزري ، الذي خلقتهاا لطبقة الحاكمةالمسيطرة ،والمجتمع البرجوازي الذي نشر وينشر الأوبئة المعدية في صفوف الشعب العامل . كالجشع ، والكسل ، والحقد والكراهية للعمل .

إن تاريخ الابداع والعمل الانسانيين ، أهم بكثير من تاريخ الانسان ذاته . فالانسان يعيش حتى المئة ، ومن ثم يموت ، بينما تعيش أعماله قروناً . فالنجاحات الاسطورية للعلم ، وسرعة تطوره تفسر معرفة العالم لتاريخ تطور اختصاصه . فهنا وهناك تلعب المراقبة والمقارنة ، والبحث الدور الرئيس . فالفنان كالعالم ، يجب أن يمتلك خصب الخيال ، و" الحدس" . إن خصب الخيال ، والحدس ، يكملان الحلقات الناقصة في سلسلة الحقائق ، وتساعد العالم في ابداع "الفرضيات العلمية" والنظريات ، التي يتحكم بها العقل . وهي بدورها ، تدرس قوة الطبيعةوظواهرها ، وبالتدريج تخضعها للعقل . ولإرادة الانسان ، وتصنع الحضارة ، التي هي حضارتنا ، وإرادتنا ، المبدعةبعقلنا ، والتي هي "الطبيعة الثانية" .

كل هذا نؤكده بحقيقتين : لقد اكتشف العالم العظيم مندلييف على أساس دراسات العناصر المعروفة : الرصاص ، والكبريت ، والزئبق . . الخ ، "جدول تصنيف العناصر" ، ولقد برهن هذا الجدول أن في الطبيعة الكثير من العناصر الأخرى ، التي لم يكتشفها أحد بعد . وكذلك ، بين مندلييف صفات هذه العناصر ، ووزنها النوعي ، التي لم يعرفها أحد من قبله .

الحقيقة الثانية : هنري بلزاك ، أحدأعظم روائيي فرنسا . فمن خلال مراقبته لسكولوجيا الناس ، كتب في إحدى رواياته ، أنه في جسم الانسان سوائل قوية ، لايعرفها العلم ، والتي تبدو واضحة من السمات النفسية والفزيولوجية للانسان . وبعد انصرام بضع عشرات من السنين ، اكتشف العلم ، أن جسم الانسان يحتوي على غدد غامضة تصنع هذه السوائل "الهرمونات" . وقام العلم بدراسات هامة على"الافرازات الداخلية". مطابقات كهذه ، بين العمل الابداعي للعلماء ، والادباء ، ليست قليلة ،فلقد كان غوته ولومونوسوف شاعرين وعالمين في الوقت نفسه ، وكذلك الروائي ستريندبرغ الذي كان أول من تنبأ في روايته"الكابتن كول"عن

امكانية استخلاص الآزوت من الهواء .

إن فن الابداع الادبي الذي هو فن خلق الشخصيات و"النماذج" يتطلب خصب الخيال ، والحدس ، و"الخلق" . فالاديب الذي يصور تاجراً يعرفه ، أو موظفاً ، أو عاملاً فإنه يرسم صورةناجحة بهذا القدر أو ذاك لهذا الشخص بالذات . ولكن الصورة ، تبقى صورة ليس إلا ، فبتجريده لهامن المعاني الاجتماعيةوالتربوية ، فإنها لاتوسع مداركنا ، ولا وعيناحول الانسان وحول الحياة .

ولكن إذا استطاع الكاتب ، أن يكبّر من كل عشرين - خمسين أو مئة تاجرٍ وعاملٍ أوموظف الصفات الطبقية لهذه الشخصيات : العادات ، الأذواق ، الحركات ، العقائد ، والأساليب الخ ، بحيث يكبّر ويجمع كل هذه الصفات في شخص تاجر أو عامل أو موظف ، فإن الكاتب ، بهذه الطريقة يكون قد صنع "النموذج" - وهذا هو الفن بعينه .

إن رحابة المراقبة ، وغنى التجربة الحياتية تسلح الفنان بالقوة التي تحول علاقاته الخاصة ، وذاتيته الى الحقيقة . كان بلزاك ذاتياً مناصراً للمجتمع البرجوازي ، لكنه صوّر في رواياته شناعة ، ورذيلة ، وقبح هذا المجتمع ، بصراحة لاترحم . وهنالك أمثلة كثيرة حيث يكون الفنان مؤرخاً موضوعياً لطبقته تساوي أهمية العالم الطبيعي ، الذي يرصد ظروف ومعيشة الحيوانات ، وأسباب التكاثر والتناسل ، والموت ، ويصوّر من خلال اللوحات ، صراعها من أجل الحياة . لقد طورت غريزة الدفاع عن النفس من أجل الحياة في الإنسان قوتين ابداعيتين هائلتين : الوعي ، والتخيل ، فالوعي - هو قوة المراقبة ، والمقارنة ، ودراسة ظواهر الحياة ووقائع الحياة الاجتماعية ؛ وخلاصة الكلام : الوعي - هو تفكير - والتخييل أيضاً ، في جوهره ، هو تفكير عن العالم ، لكن التخييل بطريقة الصور "الفنيّة" ؛ ويمكن القول ، إن التخييل - هو موهبة تعطي ظواهر الطبيعة العفوية والأشياء ، صفات إنسانية ، ومشاعر ، وحتى عزيمة .

نقرأ ونسمع : " تبكي الريح " و " تئن " ؛ " يشع القمر متأملاً " ، " نتش النهر الشجيرات القديمة " ، " عبست الغابة " ، " أرادت الموجة أن تزحزح الصخرة ، فقطبت حاجبيها تحت ضرباتها ، وصمدت ولم تتزحزح " ، " الكرسي زعق كالعلجوم " ، " تعرق الزجاج " مع أنه ليس للزجاج غدة تفرز العرق .

كل هذا ، يجعل ظواهر الطبيعة واضحة ، مفسرة بالنسبة إلينا ، أكثر . وتسمى (انتروبومورفيزم) (antnropomorphisme) من الكلمة الاغريقية ، (انتربوس - انسان ؛ ومورفة - الشكل - الصورة) . نقصد هنا ، أن الانسان يخلع على كل الأشياء ، صفاته الإنسانية . يتخيل ، يصّور ، ويحملها معه اينما حل ، وأنىّ كان - كل مايصنعه بعمله وكدحه ، وكل مايخترعه بعقله . وهناك أناس يعتقدون ، أن (الانتروبومورفيزم) ، مُضر في الفن ، ولايناسبه ، ولكن هؤلاء بالذات يقولون : "قرص البرد الأذنين" ، "ابتسمت الشمس" ، "جاء أيار" ، "الجو رذيل" مع أن ظواهر الطبيعة ، لاتخضع لتقييماتنا الاخلاقية . . .

. . . إلا أننا نرى ، أن الانسان الذي يمتلك موهبة التخييل ، قد تخيل أبطالاً ، لاوجود لهم . امثال ، هرقل ، والفلاح الروسي الجبار ايليا مورموتس ، تخيلوا أبطالاً ، وجسدوهم في شخص فلاح ، أو تاجر الخ ، ومن هذا التخييل حصلنا على "النموذج الأدبي" . على سبيل المثال : نموذج فاوست وهاملت ودون كيشوت ، وهكذا أيضاً كتب تولستوي " قتيل الرب " ، ونماذج دوستويفسكي المختلفين ، ونموذج (ابلوموف) غونتشاروف الخ . فهؤلاء الناس ، كيفما كانوا في الحياة ، صغاراً أم كباراً ، منحطين اخلاقياً ، أو يتمتعون بالصفات الانسانية الرفيعة ، فإن الفنانين مبدعي الكلمة ، خلقوا منهم " نماذج " ذات قيمة معنوية ، فكل كذاب ونصاب نسميه خليستكوف ، وكل متزلف نسميه مولتشالن وكل منافق نسميه طرطوف ، وكل غيور نسميه عطيل الخ . .

إن الاتجاهين الاساسيين ، أو الطريقتين الاساسيتين ، في الادب هما : الرومانتيكية والواقعية . تتسم الواقعية بالحقيقة ، وبعدم تزيين الناس ، وزخرفة ظروف حياتهم . أما الرومانتيكية ، فقد وضعوا لها صيغاً عديدة ، وحتى الان ، لم توضع الصيغة الدقيقة والمطلقة ، التي يمكن أن يجمع عليها مؤرخو الأدب جميعاً ولكن من الضروري ، تميز جانبين في الرومانتيكية : الرومانتيكية السلبية والايجابية : فالرومانتيكية السلبية تحاول ، إما أن تهادن بين الانسان والواقع أو تزّين الواقع له ، وتنسى الواقع متجهة إلى الافكار غير المثمرة " القدر المحتوم المميت " ، " الحب والموت " ، أو تتجه إلى الالغاز . وأما الرومانتيكية الايجابية ، فتسعى إلى تقوية إرادة

الانسان في الحياة ، وتوقظ فيه روح التمرد ضد واقعه ، وضد كل ظلم .

ولكن بالنسبة إلى الكتاب الكلاسيكين ، امثال ، بلزاك وتورغينيف ، وتولستوي ، وغوغول ، وليسكوف وتشيخوف فمن الصعب ، الحكم عليهم بدقة تامة ، هل هم رومانتيكيون ، أم هل هم واقعيون ؟ حتى لكأن الواقعية ، والرومانتيكية تتحدان في الكتّاب العظماء . فبلزاك واقعي ، لكنه كتب روايات ، كرواية " الجلد المسحور " التي هي بعيدة جداً عن الواقعية ، وكتب تورغنيف أيضاً اشياء بروح رومانتيكية . كذلك كتابنا العظماء من غوغول وحتى تشيخوف وبونين . ان تمازج الواقعية والرومانتيكية سمة من سمات أدبنا ، وهي تعطيه الأصالة ، والقوة التي تؤثر بعمق في الأدب العالمي كله .

إن العلاقة المتبادلة بين الرومانتيكية والواقعية ستكون أوضح لكم أيها الرفاق ، إذا ركزتم انتباهكم على السؤال التالي : " لماذا تظهر الرغبة في الكتابة ؟ " عن هذا السؤال لدينا جوابان ، عن احدهما ، تجيب إحدى قارئاتي التي تراسلني ، وهي فتاة عمرها خمسة عشر عاماً ، ابنة عامل ، كتبت لي في احدى رسائلها تقول : " عمري خمسة عشر عاماً ، لكن في مثل هذه السن المبكرة ، ظهرت عندي موهبة الكتابة ، وسبب ذلك ، الحياة الفقيرة الشاقة " .

كان من الأفضل ، بالتأكيد ، لوقالت ، ظهرت عندي " رغبة في الكتابة "لا" موهبة الكتابة " من أجل تزيين " تخيلها " ، وتغنيه "بالحياة الفقيرة التّعيسة" .

وهنا يطرح سؤال نفسه : ماذا يمكن أن تكتب ، وأنت تعيش "الفقر المدقع" ؟

نجيب عن هذا السؤال ، شعوب البوفولجا وسيبيريا ، فهؤلاء ، لم يمتلكوا أدباً مكتوباً ، حتى الأمس القريب ولكن منذ بضعة قرون وحتى أيامنا هذه ، أغنوا وزينوا "حيواتهم الفقيرة الشاقة" في الغابات الموحشة ، والمستنقعات ، وفي سهوب الشمال والشرق بالأغاني والحكايات والاساطير عن الابطال وعن الآلهة ، وكان ذلك "ابداعاً دينياً" ، ولكن في جوهره ، كان ابداعاً أدبياً .

فإن كانت الموهبة ، قد ظهرت فعلاً ،عند مراسلتي - فإنني أتمنى لها من الأعماق النجاح - وإنه لمن المستحيل ، أن تكتب أشياء "رومانتيكية" بل ستكتب لإغناء "الحياة الفقيرة المذلة" بتخيلات جميلة ، وستصف الناس بأفضل مما هم عليه .

لقد كتب غوغل "كيف تشاجر ايفان ايفانوفيتش مع ايفان نيكيفورفيتش" و"الإقطاعيين" و"النفوس الميتة". وكتب "تاراس بوليا" أيضاً. في قصصه الثلاث الأولى، صوّر الناس ونفوسهم الميتة"، وكان تصويره - حقيقة ساطعة. فلقد عاش مثل هؤلاء الناس، ويعيشون حتى يومنا هذا فبتصوير غوغل هذا، فإنه كتب كـ"واقعي". وفي قصته "تاراس بوليا"، صوّر القوزاقيين، الفرسان، الأقوياء، شديدي البأس. وعموماً قوزاق كهؤلاء، لم يكونوا يوماً، وقصة غوغل عنهم جميلة وليست حقيقية. وغوغل هنا، رومانتيكي، وأغلب الظن، أنه رومانتيكي لأنه تعب من مراقبة "الحياة الفقيرة التعسة الشاقة" للنفوس الميتة.

أيفهم من مجمل ما قلت أعلاه، أني أؤكد ضرورة الرومانتيكية في الأدب؟ نعم، وأدافع عن ذلك، لكن في ظروف (شروط) جد إضافية جوهرية "رومانتيكية".

مراسل آخر لي، عامل، عمره سبعة عشر عاماً، كتب إلي صارخاً: "لدي الكثير من الانطباعات وليس بوسعي أن لا أكتب"، في هذه الحالة، تفسر رغبة الكتابة ليس بـ"فقر" الحياة ،بل بغناها ،الحياة المملة المشحونة بالانطباعات التي تستصرخ النداء الداخلي بالكتابة عنها. إن الأكثرية الساحقة من مراسلي الشباب يريدون الكتابة. لأن انطباعاتهم غنية وكثيرة "ولايستطيعون السكوت"عما يرون، ومما يعانون. ومن المحتمل أن يكون بينهم عدد غير قليل "واقعيين"، ولكنني، أعتقد، أن واقعيتهم ستحمل بعض سمات الرومانتيكية التي لامناص منها كقانون في مرحلة النهوض الروحي، ونحن قلقون على هذا النهوض.

وهكذا، على سؤال ،لماذا صرت أكتب ؟- أجيب : من جراء الضغط العنيف علي من " الحياة الفقيرة الصعبة"، ولأنه، تكونت لدي انطباعات كثيرة، حيث " لم استطع إلا أن أكتب "، والسبب الأوّل، جعلني أحاول أن أحمل إلى الحياة "الفقيرة" أفكاراً، و "تخيلات" مثل "حكاية عن الصقر والافعى" و "اسطورة القلب المشتعل" و " طائر النورس ". وبدافع السبب الثاني، صرت اكتب قصصاً ذات طابع "واقعي" - "ست وعشرون وواحدة"، "زوجات أرلوف "، "الشقي".

وعن قضايا "الرومانتيكية" في أدبنا، من الضروري، معرفة التالي : قبل

تشيخوف وبونين ، أحب (أدبنا النبيل) الفلاح ، واستطاع تصويره بشكل رائع ، على أنه ذلك الانسان الوديع الدمث ، الصبور المحب " للحقيقة المسيحية " التي لاوجود لها في الواقع ، والتي يحلم بها الفلاحون طول حياتهم . أمثال كالينتش لـ (تورغينف) من قصته "الجوقة وكاليتش " وبلاتون كاراتايف ، من الحرب والسلم لـ (تولستوي) . ولقد بدؤوا بوصف الفلاح الوديع ، الدمث ، الصبور ، والحالم أيضاً " بالحقيقة السماوية " قبل تغيير نظام الرق بعشرين عاماً . مع أنه ، في اثناء عهد الرق والعبودية ، دفعت القرية المستعبدة ، من وسطها الجاهل منظمين صناعيين : آل كوكريف ، آل غوبونين ، آل موروزف ، آل كولتشين ، آل جورافليف الخ . . وبالإضافة إلى هذا ، كثيراً ماذكرت الصحافة الشخصية الاسطورية العظيمة ، التي خرجت من " الفلاحين" ـــ لمونوسوف . الشاعر وأحد أعظم العلماء .

كتب ليف تولستوي عام ١٨٥٢ قصة حزينة جداً"صباح الاقطاعي" تحدث فيها ببراعة ، كيف أن العبيد لا يثقون بالسيد الطيب الليبرالي . في عام ١٨٦٢ بدأ تولستوي بتربية أولاد الفلاحين ، وهو يعارض" التقدم"والعلم ، ويطالب الناس : تعلموا العيش الهنيىء من الفلاح ، أما في السبعينات فقد شرع بكتابة قصص"للشعب" . وصور في تلك القصص حب الفلاحين للمسيح ، والفلاحين الرومانتيكيين ، ويُعلِّم أن أفضل وأمتع حياة هي في القرية . وأفضل عمل هو عمل الفلاحين"في الارض" وفي قصته"ما هي حاجة الانسان من الارض"ـــ يجيب تولستوي : إن الانسان بحاجة إلى مترين فقط ـــ موضع قبره .

ولقد فرزت الحياة من هؤلاءالفلاحين الودعاء محبي المسيح بناة للاشكال الجديدة للحياة الاقتصادية ، وبرجوازيين ، موهوبين كباراً وصغاراً ، ووحوشاً مفترسة ، مثل آل رازوفايف وكولوبايف الذين صورهم سالتيكوف ـــ شيدرين ، وغليب أوسبينسكي ، والى جانب الوحوش المفترسة ـــ صوروا المتمردين والثوار . ولكن كل هؤلاء الناس لم يلحظهم الأدب النبيل . غانشاروف في روايته"ابلوموف" التي تعد من أفضل روايات أدبنا ـ قابل الكسلان الروسي بالاقطاعي الغبي الالماني . ولكن لايوجد فلاح واحد من الفلاحين الروس " السابقين " الذين عاش بينهم غانشاروف ، من الذين قاموا بإدارة اقتصاد البلاد . وإن صادف ، وصوّر كتاب

النبلاء (الثوري) ، فإما أن يصورروه أجنبياً ـ بلغارياً أو عاقاً متمرداً حسب كلمات رودين . ولقد بقي الانسان الروسي النشيط ذو الارادة كبطل العصر ، خارج نطاق الأدب ، خارج " مجال حقل رؤية" الادباء ، مع أنه صّرح مذكراً بنفسه مافيه الكفاية ، ويمكن ضرب الكثير من الامثلة والبراهين على أن الرومانتيكية الداعية للحياة ، وللقيام بالمآثر ، كانت غريبة على الأدب الروسي النبيل . ولم يستطع تقديم بديل عن " قطاع الطرق " لشللر ، ولكن " النفوس الميتة " صّورت ذلك بشكل منقطع النظير ، و " التابوت الحي" و "بيت الموتى" و "الجثث الحية" و " ثلاث ميتات " والكثير من الميتات الأخرى . وكأن الجريمة والعقاب " رواية دوستويفسكي ، كتبت لتقابل " قطاع الطرق " لشللر . أما مسرحيات دوستويفسكي ، فإنها الأكثر موهبة ، والاكثر حقداً من بين العديد من المحاولات التي انتقصت من الحركة الثورية في السبعينات . كما كانت الرومانتيكية الثورية ـ الاجتماعية ، غريبة أيضاً عن أدب المثقفين البرجوازيين الصغار أيضاً فالمثقف البرجوازي كان مشغولاً جداً بمصيره الخاص ، وبالبحث عن دوره في دراما الحياة . في اثنائها ، عاش المثقف البرجوازي بين "المطرقة والسندان" ، المطرقة ـ الطبقة الحاكمة المستبدة ؛ السندان ـ الشعب .

إن قصص سيبتسوف "الزمن الصعب" وأوسيبوفيتش نوفودفورسكي "ليس طاووساً ولا غراباً" ـ إنها كتابات قوية ، صّورت الوضع التراجيدي لأذكياء الناس الذين لم يمتلكوا مسنداً قوياً في الحياة ، ولم يعيشوا " طواويس أو غرباناً" .

وهكذا ، فالكتّاب ، الذين يطلق عليهم كتاب شعبيون زلاتوفراتسكي ، وزاسوديمسكي ، فولوغدين ، ليفتيوف ، نيفدوف ، نيقولاي أوسبينسكي وكثيرون غيرهم ، عملوا جاهدين في ظل (الأدب النبيل) لتتزين القرية والفلاح ، الذي كان شعبياً واشتراكياً بطبيعته . والذي لايعرف حقيقة غير حقيقة " " الجماعة " و "السلام" والحياة الجماعية المشتركة ، وكان أول من أوحى بهذه النظرة الى الفلاحين هو النبيل الرائع الموهوب غيرتسن . وقد تابع دعايته فيمايلوفسكي الذي ابتكر "الحقيقة " و " العدالة " . ان تأثير هذه المجموعة من الادباء كان ضعيفاً وزمنياً قصيراً . و " رومانتيكيتهم" تميزت عن رومانتيكية النبلاء بضعف المو هبة ، وبالحالمين ـ الفلاحين ميناي وميتياي ـ نسخ سيئة عن (بروتريهات) بوليكوشكي وكالينتش

وكاراتايف ، وفلاحين آخرين مشابهين .

التزم بهذه المجموعة أديبان لكنهما امتازا بحدة البصر والموهبة ،أكثر من الجميع ، حتى من الشعبيين ، وهما أديبان كبيران : مامين سيبيرياك ، وغليب أوسبينسكي . فهما أول من شعرا ولاحظا الفرق بين القرية والمدينة ، بين العامل والفلاح . وخاصة ، أن "أوسبينسكي" مؤلف كتابين عظيمين : "اخلاق الشارع الضائعة" و"سلطة الارض" . فالقيمة الاجتماعية لهذين الكتابين ، ما زالت حتى يومنا هذا . وعموماً فإن قصص أوسينسكي لم تفقد معناها التربوي ، وأدب الشباب ، يمكن ان يتعلم على هذا الكاتب كيفية المراقبة ، واتساع معارف الواقع . . .

. . . من البديهي ، أني أعرف تماماً ، أن الطريق إلى الحرية وعرة جداً ، ولم يحن الوقت بعد ، لشرب الشاي باطمئنان ، مع الاصدقاء ومع الصبايا الحسان ، أو الجلوس أمام المرآة (ليتمتع المرء بالنظر إلى نفسه) كما يفعل كثير من الشباب في هذه الايام .

ففي الوقت ، الذي يسري في أوربا انحطاط الانسان ، تتطور عندنا في جماهير الكادحين ، الثقة بالنفس ، وفي قوة الحياة الجماعية . يجب أن تعرفوا أيها الشباب ، أن الثقة بالنفس تظهر دائماً ، في عملية إزاحة المعوقات من على الطريق ، وغّذ السير نحو الأفضل . هذه الثقة هي القوة الابداعية الحقيقية .

لا أتذكر ، أنني في شبابي اشتكيت من الحياة . فالناس الذين عشت بينهم ، أحبوا جداً ، أن يتذمروا من الحياة ، لكنني لاحظت ، أنهم يفعلون هذا ، من خبثهم ، ومن أجل أن يحفظوا بشكواهم وتذمرهم ، عدم رغبتهم بمساعدة بعضهم بعضاً وأنا حاولت عدم الاقتداء بهم . ولكن ، تأكدت فيما بعد ، أن الناس الذين يشتكون من الحياة ، هم الذين لايستطيعون المقاومة ، الذين ليس لديهم رغبة في العمل . وعموماً هم أولئك الذين هوايتهم في أن يعيشوا " الحياة السهلة " على حساب الأخرين .

لقد عانيت الرعب كثيراً أمام الحياة ، والآن اسمي هذا الرعب ـ الرعب الاعمى . لقد عشت حياة قاسية جداً ، ورأيت منذ طفولتي مصاعب لاتوصف ، وشعرت بحقد الناس الذي لم أفهمه ، وكنت عرضةً لاضطهاد الاخرين من غير

رحمة ، وفهمت مبكراً ، أن الناس الذين يعدّون أنفسهم " قريبين من الرب " المتدينين ، ظلموا باسم الدين العمال والبائسين . عموماً ، رأيت بأم عيني الحياة الشنيعة القذرة ، والتي لاترونها أنتم اليوم ، بالاضافة إلى ذلك ، لقد رأيت الحياة بأشكالها القبيحة . الآن ، ترون البرجوازية ، أمامكم ، كيف ذعرت من الثورة ، وكيف فقدت الثقة بنفسها ، وبحقها في العيش كما كانت ، وترونها كيف تتذبذب كما هي طبيعتها . أما أنا فقد رأيت البرجوازية ، عندما كانت في أوج عزها وكانت واثقة من حياتها السعيدة ، وأن هذه الحياة السعيدة الهادئة مستمرة إلى الأبد .

في تلك الآونة ، قرأت روايات اجنبية مترجمة ، لكتّاب عظماء ، مثل ، ديكنز وبلزاك ، وكذلك روايات انيسفورت التاريخية ، وبولفرليتون ودوماس . حدثتني هذه الكتب عن أناس أقوياء الارادة ، ذوي طباع صلبة ، قرأت عن أناس يعيشون أفراحاً أخرى ، ويتألمون من اشياء أخرى.. أما أنا فقد عاش حولي أناس قذرون جشعون ، حاسدون تشاجروا ، وشكا بعضهم بعضاً ، إذا ابن الجيران كسر رجل دجاجتهم ، أو كسر زجاج نافذتهم ، أو لأن الفطائر احترقت ، أو لأن (اللحمة) في الشوربة سيئة ، أو لأن الحليب قد فسد . كان بوسعهم أن يقضوا ساعات بكاملها ، يتناقشون ، في أن السّمان زاد قرشاً واحداً على سعر كيلو السكر . وأن تاجر الفاتورة رفع ثمن متر (الشيت) قرشاً . وكانوا إذا ماحصل مكروه للجيران ، فانهم يفرحون ، ويشمتون ، لكنهم يخفون ذلك . ويتظاهرون بأنهم يشاركونهم في آلامهم . لقد رأيت جيداً ، أن القرش الواحد هو الشغل الشاغل للبرجوازية ، ولهؤلاء اللئام ، محدودي الأُفقّ . وأن القرش يُشعل في الناس الحقد الأسود القذر ، فمضمون حياة الناس الذين عشت بينهم كان : الأواني ، السماورات ، الجزر ، الدجاج ، المأكولات ، تاريخ الولادات ، تاريخ الوفيات ، والنهم والجشع ، والتخمة حتى الموت ـ هذا هو مضمون حياة الناس الذين عشت بينهم . إن هذه الحياة القذرة الشنيعة ، المخدرة ، المكدّرة ، المضجرة ، أيقظت فيَّ رغبة (الشقاوة) كي أوقظ نفسي . وعن الضجر كتب لي أحد مراسلي ، منذ فترة قصيرة ، عمره تسعة عشر عاماً : «إني أكره هذا الضجر المقيت المملوء بزعيق الكلاب» .

وهكذا ، ذات مرة ، ومن جراء الضجر القاتل (تشاقيت) . صعدت السطح ليلاً ، وسددت مدخنة المدفأة ، بالأوساخ والخرق . وقذفت بالشوربة ملحاً ، ونفخت من خلال اسطوانة ورقية غباراً في ساعة الحائط . وعموماً ، لقد فعلت كثيراًمن الافعال ، التي تُسمى (شيطنة) . فعلت ذلك ، بسبب رغبة تيقظت في داخلي كي أشعر بنفسي أني انسان حّي . وفي حينها ، لم أعرف الطرق التي بواسطتها يمكن أن أتأكد أنني حي . خيل إلي ، أني فقدت طريقي في الغابة ، وسط عاصفة هوجاء ، في مستنقع من الوحل ، حيث تغطس الرجل فيه حتى الركبة .

أتذكر هذه الحادثة : ذات مرة ، ساقوا معتقلين ، في الشارع ، الذي كنت أعيش فيه ، من السجن إلى الباخرةفي نهر الفولغا ، ومنه إلى سيبيريا . فلقد شدني هؤلاء القوم المغبرو الوجوه . ومن المحتمل اني حسدتهم ، لأن بعضهم كان يسير تحت الحراسة المشددة وبعضهم الآخر ، كان مقيداً بالاغلال . ولكنهم مع ذلك ذاهبون إلى مكان ما في الوقت الذي أنا مضطر للعيش فيه بالضبط ـ كالجرذ في القبو ـ في مطبخ قذر جداً . وذات مرة ، ساقوا مجموعة كبيرة أخرى ، إلى الاعمال الشاقة ، مكبلين بالاصفاد . وفي المؤخرة قرب الجدار سار اثنان منهم ، مربوطين ببعضهما ، بأيديهما وأرجلهما . كان أحدهما كبير الجثة ، بحاجبين أسودين وعينين كعيني الفرس . وندبة حمراء عميقة في الجبين من أثر جرح كبير ، وأذن مشرومة ، بكلمة ، كان منظره مرعباً . ورأيتني وأنا مشدوه بالنظر إليه أخذت أقتفي اثره . وفجأة ناداني بصوت عال مرح : إيه ، أيها الصبي ، تعال وتجول معنا ! فكأنه بهذه الكلمات ، قد أمسك بي من يدي .

ومن فوري هرعت إليه ، ولكن الشرطي دفعني عنه شاتماً ولو ان الشرطي لم يدفعني كي أبتعد ، لكنت ذهبت معه ـ وكأنني في الحلم ـ . أجل ، لذهبت مع هذا الرجل المرعب ، لأنه رجل غير عادي ، ولايشبه الناس الذين أعرفهم . ليكن مرعباً ، وليكن مقيداًبالاغلال ، ولكنه ذاهب إلى حياة أخرى . لقد تذكرت الرجل طويلاً ، وتذكرت صوته المرح الطيب . فقامته الطويلةالفارعة ، ارتبطت بذهني وولّدت عندي انطباعات قوية : وقع بين يدي كتاب ، كان سميكاً . وبدايته ، كانت صعبة . قرأته ولم أفهم منه شيئاً ،سوى ، حادثة في إحدى صفحاته ، عن الملك الذي اقترح على

الرامي البسيط ، أن يمنحه لقب (نبيل) ولكن الرامي أجاب شعراً :

آخ ، دعني أعيش ، واتركني أنهي حياتي بحرية
كان أبي فلاحاً بسيطاً۔ وابني سيكون فلاحاً
والمجد سيغدو أكبر ، عندمايكون أخونا طيباً
لأنه سيكون مخلصاً في العمل ، أكثر من السيد النبيل .

كتبت هذه الأبيات الصعبة في دفتري ، ولقد ساعدتني طويلاً ، وكانت بالنسبة إلي ، بمنزلة العكاز للرجل المسن . وكانت الدرع الذي حماني من الانزلاق نحو تعاليم البرجوازية الرديئة -"السادة النبلاء" . وعلى الأرجح ، انه في حياة الكثيرين من الشباب ، تصادف كلمات تغني خيالهم الفني ، وتكون بمنزلة القوة الدافعة ، كما الريح المؤاتية توجّه الشراع . بعد عشر سنوات ، عرفت أن هذه الأسطر من "كوميديا الرامي المرح ، لجورج غرين عن روبين غوديه" ، وقد كتب الكوميديا في القرن السادس عشر ، سلف شكسبير روبرت غرين . لقد فرحت جداً عندما عرفت ذلك ، وأحببت الأدب أكثر الأدب ، الذي هو الصديق الأمين للناس ومساعدهم في الحياة الصعبة منذ أقدم الأزمنة .

أجل أيها الرفاق ! لقد عانيت كثيراً الرعب ، عانيت هذه الحياة القاسية الرذيلة ووصل بي الأمر ، إلى أني حاولت الانتحار ، ولكن ، بعد مضي أعوام كثيرة ، عندما أتذكر تلك السخافة ، احتقر نفسي ، وأشعر بالعار يحرقني .

لقد تخلصت من هذا الرعب ، بعدما فهمت أن الناس ليسوا أشراراً بهذا القدر ، كهؤلاء الجهلة ، وأن الذي يخيفني ليسوا هم وليست ، الحياة ، بل كان مصدر خوفي هو جهلي وعربي ، ووقوفي أعزل دون سلاح أمام هذه الحياة . أجل هكذا ، بالضبط ـ واعتقد أنه يجب عليكم ، أنتم خاصة ، أن تفكروا بذلك . لأن الرعب ، والشكوى ، والألم ، نجدها بشكل من الأشكال في الوسط الذي تعيشونه . وذلك كنتيجة لإحساس المتذمرين مقدمي الشكاوي وعزلتهم أمام الحياة ، وعدم ثقتهم بقدرتهم على المقاومة داخلياً وخارجياً ، وضد كل ما يضطهد الإنسان .

يجب عليكم أن تعرفوا ، أن أمثالي من الناس ، كانوا وحيدين ، ومنبوذين من قبل المجتمع ،أما أنتم ، فإنكم أولاد الطبقة الكادحة ، التي أدركت قوتها ، وامتلكت

السلطة ، سلطة العمال والفلاحين ، السلطة التي يجب أن تساعدكم على تطوير مواهبكم الى الكمال . وهذا مابدأت بفعله بالتدريج . وكان بوسعها أن تنجز أكثر ، وبنجاح لولا عرقلة البرجوازية لها ، عدوّها وعدوكم الدموي .

عليكم أن تثقوا بأنفسكم ، وبقوتكم ، وهذه الثقة تكتمل بكسح المعوقات ، وبتربية الإرادة ، وذلك "بالتمرين والتدريب" . يجب أن تتعلموا كيف تنتصرون على أنفسكم ، ويجب أن تتعلموا كيف تهزمون في أنفسكم موروث الماضي الكريه . وإلا فكيف ستتخلصون من "العالم القديم المهترئ" . فهذه الأغنية لاتستأهل أن تغنى ، إذا لم تتوافر القوة ، والرغبة ، لتنفيذ ما تعلّمه هذه الأغنية . فالنصر الصغير الذي يحرزه الإنسان على نفسه ، يجعله قوياً بعض الشيء . إنكم تعرفون ، أن الإنسان الذي يمارس الرياضة يصبح قوياً ، وصحيح الجسم ،ورشيقاً ، وهكذا ، يجب تمرين العقل والإرادة وترويضهما .

هاكم حادثة ، تبرهن على أروع ما توصلت إليه هذه التمارين . منذ فترة ليست بعيدة ، عرضت امرأة في برلين ، مايلي : أمسكت هذه المرأة في كل يد قلمين وثبتت بين أسنانها القلم الخامس ، وفي الوقت نفسه ، استطاعت أن تكتب خمس كلمات مختلفة ، بخمس لغات أجنبية . فللوهلة الأولى ، يخيل للمرء أن هذا مستحيل ، لالأن هذا صعب فيزيولوجياً ، بل لأن ذلك يتطلب عقلاً ليس عادياً ، غير أن الأمر كان حقيقة واقعة . ومن جهة ثانية ، إن هذه الحقيقة ، تبرهن في جوهرها ، كيف أن الإنسان يهدر مواهبه الرائعة في المجتمع البرجوازي الفوضوي . فلكي يجذب الإنسان الانتباه إليه ، يجب ان يمشي على رأسه في الشارع ، أو ، يجب القيام بالألعاب "البهلوانية" التافهة . وكل ذلك لتسلية الناس المتشبعين ضجراً .

يجب عليكم ، أيها الشباب ، أن تعرفوا ، كل ماهو قيّم ، ومفيد ، ورائع ، وكل ماانجزته البشرية في مجال العلم ، والفن ، والتكنولوجيا ،ـ كل ماصنعه الأفراد في ظروف صعبة ، لاانسانية ، في "المجتمع" الجاهل . ويجب أن تتذكروا أيضاً ، أن بين بُناة الحضارات الكثيرين من العمال البسطاء ، مثل الفيزيائي الكبير (فاراديه) و(أديسون) . وأن آلة الغزل قد اخترعها الحلاق أراكرايت ، وأن أحد أفضل رسامي الخزف كان الحداد برنارد باليس ، وأن أعظم درامي في العالم هو الممثل البسيط

شكسبير . وكذلك ، كان موليير ، وهناك مئات الأمثلة ، على أمثال هؤلاء الناس ، الذين حققوا نجاحاتهم بفضل هذه "التمارين" .

كل هذا ، كان ممكناً ، للأفراد العاملين ، الذين لايملكون احتياطياً ذا قيمة من المعارف العلمية والتكنولوجية ، كما تمتلكون في عصرنا الراهن .

على عاتقكم تقع مهمة عظيمة ، واضحة هي "التخلص من العالم القديم" وبناء العالم الجديد ، الذي بدئ ببنائه . أما بالنسبة لطبقتنا العاملة ، فإنها تنمو في كل مكان ، ومهما وضع العالم القديم العصي أمام عجلاتها ، فإنها ستتطور ، وبالتدريج يتجمع حولها ، كل عمال الأرض . ولقد طُرِح أمام هذه المهمة بجرأة سؤال كبير "ماالعمل ؟" ، ولكن من المفروض الا يجد مكاناً له ، وألا يقال : (إن الحياة صعبة ؛ أو أنها صعبة حقاً . أليست صعبة هي الحياة !) . لأن متطلباتها أصبحت أكبر وأكثر مما كانت عليه في عهد آبائكم ، الذين لم يروها ولم يفكروا فيها .

إني أعرف بالتأكيد ، أن الكثيرين بينكم ، مسرورون بالعمل الجماعي ، هذا العمل الذي لايهدف الى تجميع الملايين ، بل لتحطيم سلطة القرش الدنيئة على الإنسان . الإنسان الذي هو أعظم وأعجب مافي هذا الكون ، الإنسان مبدع كل العجائب على هذه الأرض .

الآن ، أجيب عن سؤال : كيف تعلمت الكتابة ؟

تكونت انطباعاتي مباشرة من الحياة ، ومن الكتب . ويمكن مقارنة انطباعاتي الأولى بمواد الخام الأولية ، أما الثانية ـ فكانت كالقطعة نصف المصنعة ، أو بكلام فج ، كي يكون واضحاً ـ في الحالة الأولى ، كان أمامي حيوان ، أما في الحالة الثانية ، فقد شلخ جلده ، وصُنّع تصنيعاً جيداً . إني مدين جداً للأدب الأجنبي ، وخاصة ـ الأدب الفرنسي .

لقد كان جدي قاسياً وبخيلاً ، ولكن لم أره ، ولم أفهمه جيداً ، كما رأيت وفهمت "يفغيني غراندي" ، عندما قرأت رواية بلزاك التي تحمل العنوان نفسه . فأبو يفغيني العجوز غراندي ، كان بخيلاً وقاسياً أيضاً . وعموماً يشبه جدي . ولكنه كان أشد غباءً من جدي . وليس ممتعاً مثله ، وبمقارنتي بين العجوز الفرنسي ، وبين العجوز الروسي الذي لاأحبه ، ربحت وكبرت وذلك لم يجعلني أغيّر علاقتي

بجدي ، ولكن كان ذلك فتحاً كبيراً ـ فالكتاب الذي يحتوي هذه الموهبة ، جعلني أرى فيه مالم أكن أراه ، وعرفت فيه ، مالم أكن أعرفه .

رأيت في كتاب جورج إيللوت "ميدلمراتش" الممل ، وكتب أورباخ ، وشبيلفا غين ، الريف الانكليزي ، والالماني ، حيث لايعيش الناس ، كما يعيشون في نيجني غورود ، وفي شارع زفينر دنسكي ، بل أفضل بقليل . تحدثت تلك الكتب عن الانكليز والالمان ، وعن المال . وعن ضرورة تقديم الحب للرب ، والرعب أمامه . غير أنهم يشبهون أناس شوارعنا ، لايحبون بعضهم بعضاً ، خاصة ، لايحبون الناس المميزين ، الذين لايشبهون الأكثرية المحيطة بهم ، بهذا القدر أو ذاك . لم أفتش عن وجه التشابه بين الأجانب والروس . كلا لم أفتش عن ذلك ، بل بحثت عن وجه التفاوت بينهما . لكنني وجدت التشابه . كان صديقا جدي ايفان شوروف وياكوف كوتيلنكوف تاجرين مفلسين ، وتناقشوا دائماً ، كما تناقش الناس ، في رواية تيكر الرائعة : "بازار الحياة الهوجاء" .

لقد تعلمت القراءة والكتابة بـ(العهد القديم) . وأحببت هذا الكتاب ، الذي كتب بلغة موسيقية رائعة ، وعندما كان ياكوف كوتيلنكوف وجدي والعجائز عموماً ، يشكون ، بعضهم لبعض أولادهم ، تذكرت شكاوى الملك داوود لربه على ابنه المتمرد . وخيل إلي ، أن هؤلاء المسنين يكذبون ، وهم يبرهنون ببعضهم بعضاً ، أن الناس عموماً ، والشباب خاصة ، أصبحوا ، أسوأ ، وأغبى ، وأكسل من ذي قبل . ولايعبدون الله . هكذا ، بالضبط ، كما تحدث أبطال ديكنز المنافقون . . .

. . . لم أتبع في قراءاتي ، أي برنامج ، تم ذلك مصادفة ، فأخو معلمي ، فيكتور سرغييف ، أحب قراءة الروايات الفرنسية كسافيه دي مونتين ، غابور ريو ، زاكونيه ، بوفيه ، وبعد ان فرغ من قراءة هؤلاء المؤلفين ، عثر عل كتب روسيه ، هزأت بحقد من "النهلستين الثوريين" . وأنا أيضاً قرأت "قطيع بانورغوف"ـ كريستوفسكي ، "لاإلى مكان" ـ ستينبيتسكي ـ ليسكوف ، و "سراب" كليوشنيكوف ، و "البحر الهائج" بيسيمسكي . كان من الممتع أن أقرأ عن أناس لايشبهون الناس الذين أعيش بينهم بشيء . وكأنهم يمتون بصلة القربى إلى قاطع الطريق الذي دعاني "للتجوال" معه . إن "ثورية" هؤلاء الناس ، لم افهمها حيث

صور المؤلفون ، الذين كتبوا عن "الثوريين" الجانب الاسود فقط .

مصادفة ، وقعت قصص بوميالوفسكي في يدي . "مولوتوف" و "السعادة البرجوازية" . وعندما أراني بوميالوفسكي "الفقر المدقع" بالنسبة إلي ، شعرت أن "النهلستيين" الكثيبين ، أفضل من مولوتوف . وبعد بوميالوفسكي ، قرأت كتاب زاروبين الممل "الجوانب المظلمة والمضيئة في الحياة الروسية" . لكن لم أجد جوانب مضيئة ، أما الجوانب المظلمة ، فأصبحت مفهومة وكريهة ، وقرأت كتباً رديئة ، لاتحصى ، لكنها كانت نافعة ، فالسيء في الحياة ، يجب أن يعرف كما الجيد ، يجب معرفة الكثير وقدر الامكان ، وبقدر ماتكون التجربة غنية ، ومتعددة الجوانب ، ترفع الانسان ، وتجعله واسع المدارك . اعطاني الأدب الاجنبي ، موادّ وفيرة ، من أجل المقارنة ، وأدهشتني روعة صنعته . فلقد رسم الناس بحيوية ، وانسجام ، حتى خيل إلي أنهم أقوياء جبابرة ، ورأيتهم أنشط من الروس ـ تكلموا قليلاً ، وفعلوا كثيراً .

لقد أثّر الأدب الفرنسي فيّ تأثيراً تربوياً عميقاً حقيقياً ـ ستندال ، بلزاك ، فلوبير ، وانصح الكتاب الشباب "المبتدئين" بقراءتهم . وفي الحقيقة ، أن هؤلاء الفنانين عظماء . والأدب الروسي لا يمتلك بعد فنانين كهؤلاء . لقد قرأتهم باللغة الروسية ، وهذا لم يمنعني من أن أحس بقوة فن الفرنسيين . فبعد قراءتي لكثير من الروايات ، وبعد قراءتي ماين ـ ريد ، وكوبير ، غوستاف إيمارو بنسون ديوتيرايل ، فقد أيقظت قصص الفنانين العظماء هؤلاء ، في نفسي انطباعات عجيبة .

أتذكر حين قرأت "القلب البسيط" لفلوبير ، في عصر أحد الأعياد . يومها تسللتُ إلي سطح العنبر ، مختبئاً عن عيون الناس المبتهجين بالعيد . وانغمست بالقصة ، وكنت كالاعمى والاصم ، فالمرأة التي كانت أمامي في القصة ، حجبت عني ضجة العيد الربيعي ، هذه المرأة العادية جداً ، الطباخة ، لم تقم بأية مآثر بطولية ، ولا جرائم . وكان من الصعب علي أن أفهم ، لماذا هذه الكلمات البسيطة التي أعرفها ، والتي نسقها الكاتب في قصته ، عن الحياة التعيسة ، لتلك الطباخة ، هزتني بهذا القدر ؟ وفي هذا سر الحيلة ، العسيرة المنال . ولقد فكرت وجهدت في التفكير ، عفوياً ، وعشوائياً ، محاولاً ، أن أفهم صفحات الدنيا ، كي أجد بين

السطور حلاً لتلك الحيلة . لقد قرأت عشرات الكتب ، التي وصفت الجرائم الدموية ، والغامضة ، ولكن ، هاأنذا ، أقرأ " حوادث ايطالية " ل ستندال ، ومن جديد ، لااستطيع ، أن أفهم كيف تم صنع هذا ؟ فالكاتب ، يصنف أناساً قساة ، ومنتقمين ، قتلة ، وأنا أقرأ قصصه باللهفة نفسها "عيشة القديسين" أو اسمع "حلم مريم" وحكايتها عن "مسيرة آلام" الناس إلى الجحيم . كما ودهشت تماماً ، عندما قرأت في رواية بلزاك "الجلد المسحور" تلك الصفحات ، التي يصف فيها وليمة صاحب المصرف ، التي شارك فيها عشرات الناس ، وتعالت اصواتهم ، مرتفعة ، لتشكل ضجة فوضوية ، وكأني اسمعها الآن ، والمهم في ذلك ، أني كنت اسمع ، وأرى كيف يتحدثون ، أرى عيون الناس وابتساماتهم وحركاتهم . مع أن بلزاك لم يصف وجوه ضيوف صاحب المصرف وقاماتهم .

وعموماً ، إن فن رسم الناس بالكلمات ، فن يجعل كلامهم حياً ومسموعاً وأن جودة الصنعة ، وابداع الكلمة ، عند بلزاك ، والفرنسيين أدهشني دائماً . ولكأنما ، كُتب بلزاك قد رسُمت بطلاء زيتي ، وعندما رايت لأول مرة ، لوحات روبنسن ، تذكرت بلزاك حالاً ، وعندما قرأت دوستويفسكي بشغف حتى الوله ، اعتقدت ، أنه مدين لهذا العبقري ، الروائي العظيم . وأعجبتني أيضاً كتب غونكورف الواضحة ، وكذلك رسم زولا . أما روايات هيجو فلم تستهوني ، حتى رواية " العام الثالث والتسعين " قرأتها بلا مبالاة . ولقد أدركت سبب اللامبالاة هذه ، بعدما قرأت رواية أناتولي فرانس " عطشى الآلهة " . أما روايات ستندال ، فقد قرأتها ، بعدما تعلمت أن أمقت أشياء كثيرة ، كالكلام الهادىء ، والابتسامات الخبيثة التي ملؤها الشك . كل هذا أثار مقتي .

من كل ماقلت عن الكتب ، اخلص إلى القول ، إنني تعلمت الكتابة لدى الفرنسيين . ولقد كان ذلك مصادفة محضة ، وهذا لم يكن سيئاً . ولهذا السبب أنصح بالحاح ، الكتاب الشباب ، أن يتعلموا اللغة الفرنسية كي يتمكنوا من قراءة الكتّاب العظماء ، بلغتهم الاصلية ويتعلموا منهم فن الكلمة .

الأدب الروسي " الكبير " - غوغل ، تولستوي ، تورغينف ، غانشاروف ودوستويفسكي وليسكوف - فقد قرأته متأخراً جداً . ولقد أثّر ليسكوف فيّ تأثيراً

عظيماً ، دون أدنى شك ؛ بمعارفه الواسعة ، ولغته الفنية . إنه كاتب ممتاز وعليم بالمجتمع الروسي ، ولم تقوّم بعد ، خدماته في أدبنا . ولقد قال تشيخوف أنه مدين لهذا الكاتب ، وكذلك ريميزوف . أني أشير إلى هذه المؤثرات والعلاقات المتبادلة كي أعيد القول : من الضروري معرفة تاريخ تطور الأدب الاجنبي والروسي .

عندما بلغت العشرين ، بدأت أفهم مارأيت ، وماسمعت ، وماعشت ، حتى كان من الضروري أن احدث الناس عن تلك الاشياء ، ولقد خيل إلي أني أعرف واحس باشياء لايعرفها الآخرون . وهذا حيّرني وأقلقني . وحتى عندما قرأت كبار الكتاب ، مثل ، تورغنيف ، كنت أتساءل ، هل بوسعي ، أن احدّث الناس عن أبطال " مذكرات صياد " بشكل مغاير لما كتبه تورغينف . في هذه الأعوام ، عدوني راوياً (حكاءً) ممتازاً ، ولقد أصغى إلي باهتمام وانتباه كبيرين الحمالون ، والخبازون ، و " المتشردون " ، والنجارون ، وعمال سكك الحديد و " الجوالون " ، وعموماً ، كل الناس الذين عشت بينهم . كنت احدثهم عن الكتب التي قرأتها ، واكتشفت أني كنت احدثهم بشكل غير دقيق عن هذه الكتب ، وأشوهها ، وأضيف اليها من مخيلتي ، ومن تجربتي الشخصية ، حدث هذا ، لأن وقائع الحياة والأدب امتزجا عندي في وحدة كلية . فالكتاب ـ ظاهرة ، من ظواهر الحياة ، كالانسان ، وهو (أي الكتاب) حقيقة حية ناطقة ، وهو أصغر من غيره من " الاشياء " الأخرى ، التي يصنعها الانسان .

سمعني المثقفون ، ونصحوني :

ـ اكتب ! جرّب أن تكتب !

كثيراً ماكنت أشعر ، وكأنني سكران تماماً ، وكنت أعاني نوبات الثرثرة ، في الكلام عن الأدب ، وذلك من رغبتي في التحدث عن كل مايزعجني ويفرحني أردت الكلام من أجل أن " أفرّغ شحناتي " . وعشت لحظات موجعة ، من جراء نوبات هستيرية ، إذ كنت احس ، انه قد وقف " حجر في بلعومي " ، وأريد أن أزعق ، إن أناتولي ـ عامل تركيب الزجاج ، صديقي وإنه شاب موهوب ، وإذا لم تقدم له المساعدة ، فإنه سيموت . وإن العاهرة تيريز ، ليست عاهرة ، بل هي انسان جيد ، وليس عدلاً ، أن الطلاب يستغلونها لهذا الغرض المشين ، وهم لايرون ذلك ،

كما أنهم لايرون أن الداية العجوز البائسة ، هي أفضل وأذكى من القابلة الشابة ياكوفلفا .

كتبت شعراً عن أناتولي وتيريز سراً وخفية عن صديقي الحميم الطالب غوركي بلنتييف ، وكتبت أن الثلج يذوب في الربيع ، ليس من أجل أن يجرف مياه الشوارع القذرة إلى القبية ، حيث يعمل الخبازون ، وان الفولفا ـ نهر جميل ، وأن كوزين هو الخائن يهوذا ، وأن الحياة ـ هي قذارة فظيعة ، مليئة بالضجر ، وقاتلة للروح .

كتبت الشعر بسهولة ، لكني رأيت أن أشعاري رديئة حتى القبح . واحتقرت نفسي لعدم مقدرتي ، وعدم موهبتي في كتابة الشعر . قرأت أشعار بوشكين وليرمونتوف ونيكراسوف ، وكنت احس جيداً ، أني لاأشبه أحداً من هؤلاء الشعراء . أما النثر ، فلم أقرر كتابته ، لأنه خيل الي ، أن كتابة النثر ، أصعب من كتابة الشعر ، وأنه يتطلب نظرة صائبة حادة ، وأن الموهبة في كتابة النثر مرصوصة ، ومنسقة ومنسجمة ، بشكل غير عادي ، ولكن مع ذلك ، صرت أجرب كتابة النثر ، غير أني اخترت اسلوب النثر "المقفى" مكتشفاً بذلك اسلوبي البسيط . ولكن محاولاتي الكتابية تلك ، جعلتني كئيباً ومضحكاً . كتبت قصيدة "كبيرة" بالنثر "المقفى" ـ "أغنية البلوطة القديمة" . فشطب كورلينكو عشرات الكلمات منها ، حتى وصل إلى جذور هذا النوع من الشجر . وكنت قد ضمنت تلك القصيدة أفكاري حول مقالة "تعاقب الحياة" التي نُشرت إن لم أخطئ ، في المجلة العلمية "المعرفة" . تحدثت المقالة عن نظرية الارتقاء ، وبقي منها في ذاكرتي ، جملة واحدة فقط : "جئت إلى هذا العالم كي لاأوافق" . وأعتقد اني لم أوافق على نظرية الارتقاء .

إلا أن كورلينكو ، لم "يشفني" من محاولاتي في كتابة النثر المقفى ، وبعد مضي خمسة أعوام ، مدح قصتي "الجد أرخيب" ، وقال عبثاً إني ضمّنت القصة "شيئاً يشبه الشعر" . عندها لم أثق بكلامه . ولكن ، في البيت عدت الى القصة ، فتأكدت بمرارة ، أن صفحة كاملة سودتها ، في وصف المطر في السهوب ، وقد كتبتها بهذا النثر المقفى الملعون الذي تبعني طويلاً بشكل غير ملحوظ ، وتسلل الى قصصي ، وكان في غير مكانه . كنت أبدأ قصصي بعبارت غنائية ، هكذا ، مثلاً : "مرت أشعة القمر من خلال غصون شجرة المشمش" كنت أشعر بالعيب ، بعد أن

تنشر . وعموماً ، حاولت أن اكتب بشكل "جميل" : "السكير المتكئ على عمود المصباح الكهربائي ، نظر باسماً الى ظله الذي يرتجف" . والليلـحسب كلماتي ، كان هادئاًو مقمراً ، وفي مثل تلك الليالي لم ينيروا المصابيح الكهربائية . والظل لايتحرك . وإذا لم تكن ثمة ريح ، فالنار تشتعل بهدوء . و"وصف" كهذا و(فلتات) من هذا النوع وجدت تقريباً في كل قصة من قصصي . ووبخت نفسي بشدة وحاسبتها على ذلك . "ضحك البحر"ـ كتبت ذلك ، واعتقدت طويلاً ، أن هذا جيد . فسعياً وراء جمالية العبارة ، كنت دائماً ، اقترف "ذنوباً" بحق دقة الوصف ، ولم أضع الأشياء في مكانها ، ولم أنوّر الناس بشكل أمين . "أما وضعية الفرن ، عندك فليست صحيحة" . كانت تلك هي ملاحظة ليف تولستوي ، عندما تحدث عن قصتي "ست وعشرون وواحدة" . ولقد تبين أن النار في الفرن المنحرف الزاوية ، لاتقدم للعمال النور الكافي ، كما هوعليه الوصف عندي .

تلك كانت أخطاء صغيرة ، لكنها تحمل مغزى كبيراً ، لأنها تخرق حقيقة الفن وعلى كل حال من الصعب جداً إيجاد الكلمات الدقيقة ، ووضعها في مكانها ، وفي الوقت نفسه لم تكن قد قيلت من قبل الكثيرين "بحيث تكون الكلمات مطابقة بإحكام للافكار المطروحة" . فإن تصور الكلمات لوحة حيّة ، وترسم الصفات الدقيقة للشخصيات ، وتتثبت بسرعة في ذاكرة القارئ و"تزين" الناس ، هذا أمر ، وأن يكون الوصف "متناغماً" حياً ، بحيث يتمنى المرء أن يمس بيده ماهو مصوراً ، كما كنت أتمنى أن أمس أبطال "الحرب والسلم" عند تولستوي فإنه أمر آخر .

كنت بحاجة لأن أصف المظهر الخارجي لبلدة تقع وسط روسيا ، ببضع كلمات ، وكان ذلك يتطلب مني ثلاث ساعات حتى يسعفني الحظ ، بانتقاء الكلمات ووضعها في مكانها المناسب : "في وسط السهل المتموج المقسم بدروب موحلة تقع بلدة أوركوف المبرقشة التي تشبه علبة مزينة على كف كبيرة مجهدة" .

خيل إلي ، أني كتبت هذا بشكل صحيح وجيد ، وعندما نشرت القصة ، رأيت أن ماكتبته ، يشبه الكعكة المنقوشة ، أو علبة شوكولاته جميلة .

وعلى العموم ، يجب استخدام الكلمة بدقة متناهية ، وجدية ، هاكم مثالاً ، من مجال ثان : لقد قيل : "الدين ـ أفيون" . ولكن الأطباء ، يعطون الأفيون

للمرضى ، كمادة مخدرة ، ومخففة للألم . وهذا يعني ـ أن الأفيون مفيد للانسان ، ولكن اذا استعملوا الأفيون للتدخين ، كالتبغ ، فإن الأفيون يميت الإنسان . والكثيرون ، لايعرفون أن الأفيون هو سم قاتل ، ومضر أكثر من الفودكا .

إن عدم نجاحي ، جعلني أتذكر دائماً كلمات الشاعر الحزينة : "ليس في العالم ألم ، أقوى من ألم الكلمة" .

وحول هذا الموضوع ، تحدث بشكل أفضل مني ، غورتفليد في كتابه "أوجاع الكلمة" الذي صدر عام ١٩٢٧ . إنه لكتاب جيد جداً ، وأنّبه "زملاء القلم المتدئين" الى قراءته . "باردةً ، بائسةً وشحيحة هي لغتنا" ، اعتقد ،أنه قالها (نادسون) ، وندرة هم الشعراء الذين اشتكوا من "بؤس" اللغة . واعتقد أن الشكوى من "بؤس اللغة" ليست شكوى روسية ، بل هي شكوى عالمية ، والذي يدعو إلى هذه الشكاوي ان هنالك مشاعر وأفكاراً لايمكن أن توصف بالكلمات . عن هذا بالذات ، يتحدث بشكل رائع كتاب غورنفيلد . ولكن إذا ما استبدلنا "لايوصف بالكلمات" نجد أن اللغة الروسية غنية ، وتغنى دائماً ، وباستمرار . ولكي نتأكد من غنى وسرعة نمو اللغة ، يستأهل الأمر أن نقارن احتياطي الكلمات لكل من غوغل وتشيخوف ، وتورغينف وبونين ودوستويفسكي ، ولنقل ليونيد ليونوف . والأخير ، كان قد أعلن في الصحافة ، أنه يستمد من دوستويفسكي ومن تولستوي . وأن تأثره بالكاتبين ، لايشهد على أهمية الكاتب الشاب وحسب ، بل ويكشف عن موهبته أيضاً . فلقد أظهر في رواية (اللص) بشكل لايقبل الجدل ، إن فن لغته مدهش . ولقد أدخل الكثير من الكلمات الدقيقة السديدة الى اللغة . هذا ، دون أن نتحدث عن بناء روايته المدهش ، بتعقيده وصعوبته . وأعتقد ، أن ليونوف ،إنسان أصيل ، وله "أغانيه الخاصة" ، وقد بدأ بغنائها ، ولايستطيع أن يعيقه دوستويفسكي ، ولاأحد آخر . ومن المناسب ، أن نذّكر ، أن اللغة لاتصنع عبثاً . وتقسم اللغة ، الى أدبية وشعبية ، ونقصد بذلك ، لغة مصقولة . أي لغة مبدعي الكلمة . وأول من فهم هذا بشكل رائع ، هو بوشكين ، وهو أول من بّين كيفية استخدام لغة الشعب ، وكيف يتم صقلها .

فالفنان ـ الذي يحس بوطنه ، بطبقته ، هو عين وأذن وقلب لهذا الوطن . وهو ـ

زمانه . وعليه أن يعرف الكثير ، فكلما عرف الماضي بشكل أفضل ، كان الحاضر ، واضحاً له ومفهوماً . وهذا يجعله يحس بعمق ثورة زماننا ، بجلالة ، وجسامة أهدافها ومهامها . ومن الضروري ، معرفة تاريخ الشعب ، ومن الضروري أيضاً ، معرفة أفكاره الاجتماعية والسياسية . فلقد برهن العلماء ومؤرخو الثقافة والاثنوغرافيون ، أن هذه الأفكار ، تنداح في الحكايات ، والأساطير ، والأقوال المأثورة ، والأمثال الشعبية . وتعبر عن أفكار الجماهير الشعبية بشكل عام . وان الأمثال الشعبية ، والأقوال المأثورة مفيدة ، بشكل خاص للكتّاب المبتدئين ، ليس لأنها تعلم اقتصاد الكلمة ، واختصار القول ، والايجاز في العبارة ، هاكم لماذا : إن الأكثرية الساحقة ، من سكان بلاد السوفييت ـ من الفلاحين ، ومن هذه الطينة ، ولد العمال ، البرجوازيون ، والتجار ، والقساوسة ، والموظفون ، والنبلاء ، والعلماء ، والفنانون . فالتفكير الفلاحي نشأ ورُبي في الكنيسة الحكومية . ولقد بثت تعاليم الكنيسة هذه منذ زمن بعيد ، التفكير بشكل جاهز وجامد .

عندما قرأت كتب "المحافظين" وكتب "المدافعين عن نظام الاستبداد" لم اجد في تلك الكتب جديداً ، لأن في كل صفحة ، كررت من قبلها ، ولكن بشكل مقلوب وكل هذا عرفته منذ الطفولة ، وإنه لمن الواضح ، أن حكمة المحافظين ـ ليونوف وبوبيدونتسف وغيرهما ، منغمسة في "حكمة الشعب" التي سيطرت عليها الكنيسة . ومن البديهي ، أن هنالك أقوالاً مأثورة ، وأمثلة شعبية كثيرة ، مغايرة تماماً لما ذكرناه .

وعلى كل حال ، تشكل الأمثال والأقوال المأثورة ، مجازياً ، كامل الحياة الاجتماعية والتاريخية للشعب الكادح . كما الأصابع في الكف . لقد تعلمت الشيء الكثير من الأمثال الشعبية ، وبكلام آخر ، من أفكار الأقوال المأثورة . أتذكر سولداتوفـ كنّاس ، يكنس الشوارع . وذات يوم ، كانت مكنسته جديدة ، وغير ملوثة ، فنظر إلي ، وغمز بعينيه فرحاً وقال :

"المكنسة جيدة ، والأوساخ لايمكن كنسها تماماً . أنا أنظفها والجيران يأتون بها" .

فهمت حالاً ، الكناس ، قال الصدق ، حتى الجيران ، ولو كنسوا أمام بيوتهم ،

فالريح ستحمل الأوساخ من شوارع أخرى ، وإذا ما نظفت كل شوارع المدينة ، فإن الغبار سيأتي من الحقل ، والطرق ، ومن مدن أخرى ، فمن الضروري ، أن تنظف أمام بيتك . ولكي تكون النظافة أعم وأشمل ، إذا شملت الشارع كله والمدينة كلها ، والأرض كلها .

هكذا يمكن قلب المثل الشعبي ، وهاهو ذا مثال ، كيف ينشأ : في مدينة "نيجني نوفغورد" انتشر وباء الكوليرا . فأشاع برجوازي ضيق الأفق ، أن الدكتور يميت المرضى ، فأمر المحافظ بارانوف باعتقاله ، وجعله عاملاً ، في مكان معالجة المصابين بالكوليرا ، وبعد مضي فترة زمنية شكر البرجوازيُ المحافظ على هذا الدرس ، فأجابه بارانوف : "اعمس رأسك في الحقيقة ـ تقلع عن الكذب" .

كان بارانوف فظاً ، ولكن ليس غبياً ، وبظني ، أنه استطاع أن يقول تلك الكلمات . وبالمناسبة ، سيان ، من قالها . وهكذا ، على مثل تلك الأفكار الحيّة ، تعلمت التفكير والكتابة . لقد وجدت أفكار الزبالين ، والمحامين ، وكل اصناف الناس الآخرين "السابقين" وغيرهم ، في الكتب ، وبكلمات أخرى ، إن وقائع الحياة والأدب ، متبادلة وتكمل بعضها بعضاً . أما كيف يصنع الكتاب "النماذج" والطبائع ، فلقد تكلمت أعلاه ولكن يمكن أن يكون مفيداً أن أجرب مثلين آخرين : "فاوست" لغوته ، واحدة من اروع ثورات الإبداع الفني ، التي هي "ابتكار" او فكرة أو الأصح ، "فنتازيا" مجسدة ، بافكار وصور فنية . لقد قرأت "فاوست" ، عندما كان عمري عشرين عاماً . وبعد فترة وجيزة ، عرفت أنه منذ مئتي عام قبل ظهور كتاب الألماني "غوته" و "فاوست" ، كتب الانكليزي كريستوفر مارلو، ان لـ"بوتشني" البولوني ، رواية "بان تفاردوفسكي" هي أيضاً فاوست . مثلها مثل رواية الفرنسي بول موسيه "الباحث عن السعادة" ، وان أساس كل الكتب ، التي تحدثت عن "فاوست" مستمد من الحكاية الشعبية ـ القروسطية عن أن الإنسان ، الذي كان متعطشاً للسعادة الشخصية ، وللسيطرة على الطبيعة الغامضة ، وعلى الناس ، قد باع روحه للشيطان . نمت هذه الفكرة ، من مراقبة العلماء "الكيمائيين" في القرون الوسطى ، للحياة ، وعملهم من أجل صنع الذهب ، واكسير الحياة ، مانع الموت ، وبين هؤلاء وجد حالمون جيدون ، "ومتعصبون للفكر" ، ووجد أيضاً

منافقون . تلك كانت بعض الجهود العقيمة لشخصيات نادرة ، في تحقيق "السلطة العليا" ، وكانت سخرية في تاريخ مغامرات القرون الوسطى للدكتور فاوست ، الذي لم يسعفه الشيطان في تحقيق معارفه وخلوده . وإلى جانب شخصية فاوست المنحوس ، كانت ثمة شخصية أخرى ، معروفة لكل الشعوب : في ايطاليا ـ هذا بولتشيللو ، في انكلترا ـ بونتش ، في تركيا ـ كارابيت ، وعندنا ـ بيتروشكا . هذا البطل الذي لايقهر ولايغلب ، إنه البطل الشعبي في كوميديا الأطفال ، فهو ينتصر على الجميع ، على الشرطة ، على القساوسة ، وحتى على الشيطان والموت ، وهو الوحيد الذي يبقى حياً خالداً . هذان المثالان يؤكدان ، ماقيل أعلاه : الابداعات "مجهولة المؤلفين" ، أي ابداعات أناس لانعرفهم ، فهي تخضع أيضاً ، لقانون التجريد ، وتضخيم الصفات والطباع لهذه المجموعة من الناس او تلك في المجتمع ، أو تخصيص وتعميم هذه الصفات لمجموعة واحدة من هذه المجموعات . فخضوع الفنان الصارم لهذه القوانين ، يساعده ، على صنع "النماذج" . هكذا صنع شارل ديكوستير "تيل أولينشبيغل" ورومان رولان ـ "كول بريونون" والفونيس دوديه ـ "تارتارن" . ان تصوير بورتريهات "نموذجية" واضحة جداً للناس ، يمكن فقط في شروط تطور المراقبة والقدرة على التصوير ، وايجاد التشابه ، ورؤية الفوارق وبشرط : تعلّم ، تعلّم ثم تعلّم . وفي المكان الذي تختفي منه المعارف الدقيقة ، تسود فيه وتنشط الأحاجي والتخمينات . وفي كل عشرة تخمينات تسعة أخطاء .

لاأعد نفسي فناناً ، لديه الموهبة في صنع الطباع والنماذج الفنية التي تكون ذات قيمة كبيرة ، من وزن نماذج وطباع ، كأبلوموف ، ورودين ، وبازاروف . .الخ . . ولكن من أجل كتابة "فوماغوردييف" اضطررت أن أرى عشرات الأبناء غير القانعين بحياة آبائهم وعملهم . لقد أحسوا بكآبة هذه الحياة التي تسير على وتيرة واجدة ، "الحياة الفقيرة المرهقة" والتي لانفع فيها . من هؤلاء ، كان (فوما) ، هؤلاء الذين يرفضون الحياة المملة ، والضجر المذل ، والناس المستغرقين في التفكير ، حيث خرج السكارى والأوباش و"حارقو الحياة" من جهة ، وأما من الجهة الثانية ، فقد خرج "الغربان البيض" امثال ، سافا ماروزوف ، الأداة التي قدمت "الشرارة" اللينينية ، مثل ميشكوف ـ عامل الباخرة ، والعامل غونتشاروف . . والمسكوفي شميت وكثيرون

آخرون . . ومن هنا ، ظهر رجال الثقافة مثل ميليوتين وموسكوفيون آخرون ، وكذلك ، كثير من تجار الأرياف الذين عملوا في مجال العلم والفن الخ . . فالأدب الروحي لفوماغورديف ، ماياكين ، صُنع من الصفات الصغيرة من "الأمثال" . وانا لم أخطئ : بعد عام ١٩٠٥ـ وبعد ان بلّط العمال والفلاحون للماياكين الطريق الى السلطة ، بأجسادهم ، لعب المايا كيون ، كما هو معروف ، دوراً كبيراً ضد الطبقة العاملة ، ومازالوا حتى اليوم يحلمون بالعودة الى الأعشاش القديمة .

* * *

يطرح عليّ الشباب ، السؤال التالي : لماذا كتبت عن "المتشردين" .

ـ بسبب العيش وسط البرجوازية الصغيرة ، حيث لاترى أمامك سوى الناس الذين لاهدف لهم ، إلا الغش والاحتيال ، ومص دم الإنسان من أجل الكوبيك ، ومن الكوبيك تجمع الروبلات . وانا ، كذلك ، مثل مراسلي ، ذي التسعة عشر عاماً "الذي بكل صبره واحتماله" كره هذه الحياة المقيتة اللعينة ، كالبعوض ، للناس العاديين ، الذين يشبهون بعضهم بعضاً كالقطع النقدية النحاسية .

بدا المتشردون ، بالنسبة الي "أناساًغير عاديين" . و"غير العادي" فيهم ، أنهم أناس "منخلعين عن طبقتهم"ـ منفصلون عنها ، نابذون لها ، فاقدون لصفات طبقتهم المميزة .

في قازان ، في "معمل الزجاج" عاش عشرون رجلاً ، غير متجانسين "الطالب" رادلوف أو رادونوف ، والعجوز جامع الخرق البالية ، الذي قضى عشـ اعوام في الأعمال الشاقة . وفاسكا غراتشيك الخادم السابق للمحافظ اندريفسكي والميكانيكي رودذيفيتش ، وابن الكاهن ، والبيطار دافيدوف . وهؤلاء القوم ، كاذ مرضى ، سكارى مدمنين ، عاشوا معاً . ولكن ليس من دون عراك ، إلا أن شعو الرفاقية والود والتفاهم كان متطوراً بينهم . فكل ما يجمعونه من سرقة أوعمل ، كاذ يتقاسمونه فيما بينهم بالتساوي ، أو يأكلونه معاً . رأيت ،أنهم يعيشون أسوأ مر "الناس العاديين" ، غير أنهم ، يحسون بكرامتهم ، أكثر من أولئك ، وذلك لأنهـ ليسوا جشعين ، ولايقتلون بعضهم بعضاً . ولايجمعون الأموال . وقلة منهم استطاعت أن تقتصد شيئاً ، إذ بقيت فيهم سمات "حب الملكية الذاتية" وحبهم

بالحياة "الشريفة" وقد استطاعوا أن يدخروا ، لأن فاسكا غراتشيك ، كان لصاً ظريفاً ، ومحظوظاً ، فقد كان يحمل لهم غنائمه ، ويعطيها "لأمين الصندوق" ، أما رودزيفيتش الذي تصرف " بشؤون" المعمل ، دون مراقبة ، فكان انساناً عديم الشخصية ، وضعيف الإرادة .

اتذكر عدة مشاهد من هذا النوع : سرق احدهم ، حذاء صيد جيد ، وأتى به كي يبيعه ويشرب بثمنه ، إلا أن رودزيفيتش المريض ، قال قبل عدة أيام ، أنه يجب قص الحذاء ، فنشرب بثمن الساقين والحذاء نعطيه" للطالب" فإنه يمشي بحذاء مهترىء مهلهل - تبرد رجلاه - فيموت ، وهو انسان طيب .

قصوا الحذاء ، ولكن المحكوم بالاشغال الشاقةالقديم ، اقترح ان يخيط من الساقين خفين . واحد له ، والثاني لرودزيفيتش . وهكذا ، لم يبيعوا الحذاء ليشربوا بثمنه . وقد علل غراتشيك صداقته لهؤلاء الناس ومساعدته وكرمه لهم من جراء حبه لهذا " المتعلم" .

قال لي ذات مرة : أنا أخ ، أحب الانسان المتعلم والنساء الحسان أكثر . كان انساناً عريب الاطوار . ذا شعر أسود ، ووجه رقيق جميل ، وابتسامة لطيفة . كان مطرقاً دائم التفكير ، قليل الكلام ، وفجأة ذات يوم ،انفجر هائجاً مسعوراً ، مسروراً . رقص ، وشرب ،وحكى عن نجاحاته ، عانق الجميع ، كالذي يذهب إلى الحرب ، إلى الموت . وفي القبو التابع لخمّارةبوتوف ، في شارع (زادنيا موكريا) حيث تقوم الآن محطة موسكو للقطارات ، أطعم ثمانية اشخاص ، عجزة بائسين ، من بينهم كانت امرأة شابة مجنونة ، ومعها طفل عمره عام واحد . وقد تحول إلى لص بهذا الشكل : حين كان خادم المحافظ ، قضى ليلة مع عشيقته ، وفي الصباح وفي الطريقه إلى البيت ، وهو مايزال مخموراً ، سرق من بائعة الحليب ، زجاجة حليب ، وشرع بشربها . فاعتقلوه فوراً . وصار يتعارك معهم ، فحكم عليه القاضي كولونتايف القاسي الليبرالي الفظيع ، بالسجن . وعندما انهى فاسكا فترة سجنه المحكوم بها ، تسلل إلى مكتب كولولنتايف ، فمزق له أوراقه وسرق ساعة المنبه ، والمنظار ورجع إلى السجن من جديد . وأنا ، تعرفت إليه ، بعد عملية سرقة غير موفقة ، في قرية (تاتارسكي) حيث قمنا بمراقبة العسس الليلي ، فوضعت رجلي أمام

احدهم معرقلاً ، كي يتمكن فاسكا من الهرب ، يومها هربت معه . وكان بين المتشردين هؤلاء أناس غريبو الاطوار ، لم أفهمهم جيداً ، لكنني ظفرت منهم بفوائد كثيرة . هؤلاء لم يتذمروا من الحياة . أما عن الحياة السعيدة · لضيقي الأفق" فكانوا يتحدثون بسخرية ، وهزء ، وذلك لم يكن حسداً ، وليس لأنهم لا يستطيعون الحصول على مايحصل اولئك عليه ، بل وكأنه من اعتزازهم بكرامتهم ، ومن ادراكهم ، أنهم يعيشون (التعاسة) وفي الوقت نفسه ، يدركون على الرغم من فقرهم ، انهم يعيشون أفضل من اولئك الذين يعيشون في (بحبوحة) .

رأيت كوفالد (صاحب مأوى) -" يأوي إليه المتشردون" أول مرة ، والذي صورته في قصتي" الناس السابقين" في مكتب القاضي كولونتايف ، ولقد أذهلتني ثقته ، واعتزازه بنفسه . حيث وقف هذا الرجل الاشعث ، يجيب على اسئلة القاضي باحتقار . كذلك ادهشني المتشرد اللطيف المضحك من مدينة أوديسا ، الذي قص لي حادثة ، وكتبتها في قصة (تشلكاش) ، وكنت قد التقيت به في المستشفى في مدينة نيقولا(خيرسون) ، أتذكر جيداً ، ابتسامته ، التي كشفت عن اسنانه البيضاء الرائعة . الابتسامة التي كان ينهيها بقصته عن خيانة شاب كان قد رعاه وشَغَّله معه . لقد ذكرني بابطال دوماس الطيبين . وبعد خروجنا من المستشفى جلسنا في أحد منتزهات المدينة ، وقدم لي بطيخاً أصفر ، واقترح علي قائلاً : " أتعمل معي عملاً جيداً ، فإني أتوسم الخير والفائدة فيك" . وشكرته بامتنان لاقتراحه هذا ، ولكنني ، في تلك الآونة ، كنت أعرف ، أنه يوجد عمل ، أفضل بكثير من التهريب والسرقة .

بهذا يكمن اندفاعي نحو" المتشردين" هادفاً تصوير أولئك الناس" غير العاديين' وليس تصوير البرجوازيين الضحلين . هنا ، تأثرت بالأدب الأجنبي ، وخاصة بالأدب الفرنسي ، الذي كان واضحاً وجلياً أكثر من الأدب الروسي . والحقيقة ، أن المهم هنا ، كانت الرغبة في تزيين" الحياة" المرهقة البائسة ، التي تحدثت عنها الفتاة ذات الخمسة عشر عاماً .

هذه الرغبة ، كما قلت سابقاً ، تسمى"بالرومانتيكية" ولقد اعتبر بعض النقاد ، أن رومانتيكيتي ، انعكاس للفلسفة المثالية ، وأعتقد أن ، هذا ، ليس صحيحاً .

فالفلسفة المثالية ، تعلّم ، أن فوق الانسان والحيوان ، وفوق كل الأشياء ، التي يبدعها الانسان تسيطر "الفكرة المطلقة" . من وجهة النظر هذه فإن قوة ـ مافوقنا ، توجد فكرة القيود ومحرك الاحتراق الداخلي ، وفكرة انبوبة باسيل للسل ، وفكرة الأسلحة سريعة الاطلاق . فكرة الضفدع ، والجرذان ، وكل ما يدب على الأرض ، وكل ما يصنعه الانسان . وإنه لمن الواضح جداً ، أنه من هنا تنبع حتمية الاعتراف بوجود خالق لكل هذه الأفكار ، كائناً من كان . ولكن لماذا يخلقون النسر ، والقملة ، الفيل والضفدع .

بالنسبة الي ، اعتقد بوجود أفكار خارج الانسان . والانسان بالنسبة إلي ، هو المبدع لكل الأشياء ، ولكل الأفكار . أجل هو بالذات ـ الخالق العجيب ، ومستقبلاً سيكون سلطان كل القوى الطبيعية ومروضها . إن أروع ما في عالمنا ، هو المصنوع بالعمل ، باليد البشرية الخلاقة . وأن كل افكارنا ، تنبع وتظهر من العمل ، وهذا ما يؤكده لنا تاريخ تطور الفن ، والعلم ، والتكنولوجيا .فالفكرة تاتي بعد الفعل (الواقعة ـ الحادثة) . وأمام الانسان"أنحني" لأني لاأرى في عالمنا ، إلا ما يجسده عقله وما يصوره بفنه ، وما يبتدعه . . .

وإذا كان لابد هنا ، من الحديث عن"القداسة" فالقداسة ، هي سخط الانسان من نفسه ، ومحاولاته ، ليكون أفضل مما هو عليه . القداسة هي كره الانسان لكل دناءات الحياة ، المصنوعة من الانسان ذ١ته . القداسة هي رغبته في تحطيم الحسد والجشع ، والجريمة ، والمرض ، والحرب ، وكل ما هو ضار بالناس على وجه الارض . القداسة هي العمل .

عن الواقعية الاشتراكية

تتطلب تقنية العمل الادبي ـ بالدرجة الاولى دراسة اللغة ، التي هي المادة الاساسيةلأي كتاب كان . وخاصة الكتابات الادبية (النثرية) . إن مفهوم كلمة "بِلْ ليتر" الفرنسية ، يعني بالروسية ـ الكلمة الجميلة . ويفهم من كلمة الجمال هنا ،هو تناغم مختلف المواد ـ وكذلك ، الاصوات ، والالوان ، والكلمات ، التي تضفي على ما يخلقه الانسان ـ الفنان ـ شكلاً مؤثراً ، في العاطفة والذهن ، كالقوة ، التي تثير الدهشة ، والفخر ، والفرح في الانسان .

يتشكل جمال اللغة الأصيل ، والذي يؤثر كالقوة ، من دقة الكلمات ووضوحها ، ونغمتها ، التي بدورها تشكل اللوحات والطباع ، وأفكار الكتب . ويتطلب من الكاتب ـ الفنان ـ المعرفة الواسعة باحتياطي مفردات القاموس الغنية ؛ والقدرة على اختيار المفردات الدقيقة ، الواضحة ، والقوية منه . فترتيب هذه الكلمات ، وتوزيعها الصحيح ـ حسب معانيها ـ بين النقاط يشكلان أفكاراً بشكل نموذجي ، ويعطيان لوحات مضيئة ، ويصنعان شخصيات حية من الناس ، مقنعة ، بحيث تجعل القارئ يرى ما يجسده الكاتب . ويجب على الأديب ، أن يفهم ، أنه لايكتب بالقلم فحسب . بل ـ يرسم بالكلمات ، لأنه يرسم لاكما الرسام ، الذي يجسد الإنسان جامداً ، بل عليه أن يصور الناس في حركتهم المستمرة . ويصور أفعالهم ، ويصورهم في صدامهم الدائم مع بعضهم بضعاً . يصور أيضاً ، تصارع الطبقات ، والمجموعات ، والأفراد . ولكن ، لاتوجد حركة في العالم ، لم تلق المقاومة ، ومن هنا ، فإن من الواضح ، إنه بالاضافة الى ضرورة اتقان اللغة بدقة ، وتنمية القدرة على اختيار أبسط الكلمات ، وأوضحها ، وأبلغها جمالاً ، والمصقولة جيداً ، من اللغة الأدبية ، والتي تعج ـ على الرغهم من كمالها ـ بالكلمات الفارغة

القبيحة ، والمشوهة ، بالاضافة إلى هذا ، على الكاتب أن يعرف جيداً تاريخ الماضي ، والظواهر الاجتماعية المعاصرة ، وعليه أن يقوم عندئذ بدورين في الوقت نفسه : دور الداية ، ودور حفار القبور . إن الكلمة الأخيرة ، تبدو كئيبة ، غير أنها في مكانها تماماً . فعلى إرادة الكتاب الشباب ومقدرتهم يتوقف إفعام الأفكار البهيجة اليقظة عليها .ومن أجل ذلك ، يجب أن نتذكر أن التاريخ ، يدعو أدبنا الشاب الى أن يقتل ويدفن كل ما هو ضار بالناس . ولو كانوا مازالوا يحبونه .

بداهة ، أنه لمن الأمور الساذجة والمضحكة ، أن نتكلم عن "الحب" في المجتمع البرجوازي ، الذي يدعي أنه أحد ركائز دعاياته الأخلاقية : "احب أخاك أو جارك كما تحب نفسك" . وهذا يعني أنه يؤكد حب الانسان لنفسه ، هو النموذج الأساسي المطلق للحب(*) . ومن المعروف جيداً ان المجتمع الطبقي ، لايمكن أن يُبنى ، ولايستمر في الوجود . إذا ما عمل بالوصية : "لاتسرق" ، "لاتقتل" .

لقد تعلم الطلائعيون في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ، أن يفهموا ، وقد فهموا حقيقة واضحة ومرعبة : ان مدنية البرجوازية ، وحضارتها ، مبنيتان على الصراع الوحشي للبرجوازية ـ (الجيران ـ المتخمين) ضد الأكثرية الساحقة ـ (الجيران ـ الجائعين جداً) . وانه لمن المستحيل ، ان "تحب جارك" إذا كان عليك أن تسرقه . وإذا ماقاوم السرقة ، فإنك ستقتله . ومنذ القديم ، ومن خلال تطور "النظام" البرجوازي ولد من بين الفقراء والجائعين ، قطاع الطرق ، في البر والبحر ، وكذلك ، ولد أيضاً دعاة الانسانية أولئك الناس أشاروا للجائعين والمتخمين وأنصاف الشبعانين ، أن يحدوا من الاسراف في حب ذواتهم .

لقد فضحت أفعال قطاع الطرق ، بشكل واضح جداً الأساس الجوهري ، الذي تقوم عليه حكومة الأغنياء ، وظهرت عند الأغنياء ضرورة القضاء على قسم من قطاع

(*) « إن حب الذات هو قضية إيجابية عن قضايا القانون الإلهي ، ومن هذه النقطة المذكورة ، يتطور حبنا للجار . »
ـ بشير الكنيسة ، العدد ٤٥ ـ ١٩٠٩ . مقالة عن حرق الجثث . المقال بدون توقيع، وربما كان للبروفسور يفسييف .

الطرق ، واستدعاء ـ القسم الآخر ـ الى إدارة جهاز الحكم . ففي العصور السابقة ،مثلاً ، القرون الوسطى ، اتخذ البرجوازيون ، والتجار ، قطاع الطرق قادة لهم ، في صراعهم مع الحرفيين ، والفلاحين : الدوقات ، الدكتاتورات الطغاة . "أمراء الكنيسة" الخ . ولقد استمرت هذه الطريقة في دفاع التجار عن أنفسهم ضد العمال ، حتى أيامنا هذه ، إذ يترأس الحكومات البرجوازية أصحاب المصارف ، وصناع الاسلحة ، والمغامرون الشجعان ، وغيرهم من "الخطرين" اجتماعياً . كما وأن دعاة الانسانية ، لم يتركوا التجار يعيشوا بهدوء ، ولهذا السبب ، فإن اولئك الناس الذين دعوا باصرار ، وأشاروا الى الحد من الاسراف في حب الذات ، فقد قضت عليهم البرجوازية ، بمختلف الأساليب ، حتى حرقهم أحياء . أو أغروهم ، كما في أيامنا هذه بالخيانة ، بتعيينهم بمناصب رفيعة ، وعندما يصعد هؤلاء ، يبدأون بالدفاع عن النظام البرجوازي ، واستتباب الأمن فيه . كما نرى هذا في أعمال وزراء أوروبا الذين أتى بهم التجار من صفوف العمال الاشتراكيين السابقين .

بيد أن هذا كله ، لايؤدي بالبرجوازية الى "التعاون السلمي بين الطبقات" ولاالى ماتتمناه في بناء "العلاقات الطبقية المنسجمة" ، العلاقات المنسجمة بمعنى ، أن الأقلية المتخمة "الجيران" التي تمتلك : "السلطة السياسية" تفعل ماتريد . وأما الأكثرية "الجائعة ـ الجيران" فتخضع بمذلة لها ، وتنفذ ما يطلب اليها التجار المتخمين ، في كل البلدان ، هؤلاء اتخموا وتبلدوا من "مباهج" حياتهم الاجرامية . لقد كشف التاريخ باستمرار ، فاضحاً بشكل هزلي ، المحظوظين ، المكللين بالذهب . أمثال ، رجال الأعمال ـ المغامرين ، كالمشهور "ملك الثقاب" ايغاركرينغر ، وأمثاله . فالشاهد الساطع عن طبيعة البرجوازية الهشة ، غير المستقرة هو تكاثر عمليات الانتحار بينهم ، غير أن اولئك الذين ينهون حياتهم بأنفسهم ، لايغيرون حال الباقين الأغبياء الذين يواصلون حياتهم ميكانيكياً ، وبشكل أحمق وسافل . ولايتورعون عن تنظيم مجزرة دموية جديدة والتي ربما تدّمر طبقة من الناس المحبين لأنفسهم ، والذين سببوا مصائب الشعب العامل وآلامه وتعاسته .

فالاديب السوفييتي ، سيسعف نفسه ، اذا ما استوعب الواقع ـ ومواده . إذا تصور نفسه ، متأرجحاً بين قوتين . الأولى ، تؤثر في العقل ، والثانية ، في العاطفة ،

هكذا تماماً قد وضعه التاريخ ، في عصر انهيار الرأسمالية ، في مرحلة تتصاعد فيها المعارك الطبقية العالمية ، المؤدية الى حتمية انتصار الاشتراكية . ولكن على الرغم من الضجة العظيمة للمعارك ، التي قد بدأت فإنها تُخمد بنقيق البرجوازيين الصغار ، الذين اعتادوا منذ القديم أن يقوموا بالصفقات ، والسرقات ،حسب طبيعتهم . لأنهم غير مؤهلين للحرب . ولكن عندما يبدأ الملاك الكبار الحرب ـ فإن الصغار ينقلبون لصوصاً ، يسرقون القتلى ، ويذبحون الجرحى ويسلبونهم . وبعد عملية كهذه ،كثيراً ما ينقلب الصغارمنهم كباراً . فمن المعروف ان الحروب البورجوازية" تخلق أبطالاً" . ولكنها بقدر أكبر تخلق محتالين . فعادة ، يبقى الابطال على أرض المعركة ، ممزقين قطعاً . أما المحتالون الاكثر مهارة ، فيقتحمون الحياة ، كمشرعين في القانون ، واصحاب املاك ، وعندما يدركون المنفعة المرجوةمن المذابح البشرية الجماعية ، فإنهم من جديد يبدأون بتحضير اعمال مربحةجداً ، ان ثمة الهاً ، اسمه ـ الربح ، هو وحده الذي يعبده البورجوازيون ، ويقدمون الملايين من العمال والفلاحين قرابيناً له .

تعيش البرجوازية الصغيرة ، وحتى الكثير من العمال ، الذين تسمموا بسبب جوارهم لها غارقين حتى آذانهم في المستنقع . ويتذمرون رافعين شكواهم خوفاً من البلل ،ويختلط هذا التذمر الفارغ ، مع النداءات البروليتارية الثورية البطولية ويخمدها ، إنهم يشكون من الحياة السيئة في المستنقع العفن الضيق . ويقومون بمحاولات جد قليلة ، من أجل الخروج إلى مكان عال وجاف ، في حين أن الكثيرين منهم لديهم كامل القناعة بأن المستنقع هو "الجنة الأرضية" . ولكن ، ومع ان تصوير "اللوحات" ضرورية للأديب ـ فإننا سنتحدث بشكل أقل عن التصوير .

يجب على كاتبنا السوفييتي ، أن يعرف تماماً أن أكثرية معاصريه ـ هم مادة عمله ـ اولئك الناس الذين ربتهم العصور على الصراع الذي لايرحم ضد بعضهم بعضاً ، من أجل كسرة الخبز . وأن كل واحد من "جيرانه" تحرقه الرغبة الى الثراء المادي ، وهذه رغبة طبيعية ترتكز على حاجة بيولوجية ، في الطعام والمسكن المريح . .الخ . وهذه الحاجة الضرورية تشترك فيها الحيوانات والحشرات كالثعلب ، والحدأة ، والخلد ، والعنكبوت ، التي كلها تبني أعشاشاً وجحوراً ، ولكن بعض

الحيوانات المفترسة والطفيليات ، تقتل أكثر مما تستطيع أن تلتهم . فعلى نزعة الناس الى الثراء المادي والرفاه ، مبنية كل حضارة البشرية ، ولكن طفيلية البرجوازية التي تمتلك السلطة ، والإمكانات ، غير المحدودة لاستغلال العمال والفلاحين ، قد خلقت بحجة اشباع الحاجات الضرورية ، الفائض المغري ، والذي أطلقوا عليه اسم "الرفاه". ان تأثير هذا الفائض المفسد اعترفت به البرجوازية نفسها : ففي جمهورية روما القديمة على سبيل المثال كانت ثمة قوانين ضد الترف والبذخ ، ولقد ناضلت برجوازية سويسرا ، وفرنسا ، والمانيا ، ضد البذخ والترف في العصور الوسطى . في حين سلبت البرجوازية عمل الآخرين ، أكثر بكثير مما هو ضروري لسد متطلباتها . ولقد أصيبت بعدوى نزعة الربح الهين ، لتكديس الأموال والمقتنيات . وأصبحت مسعورة ، ونقلت هذه العدوى للعالم كله . ولقد ولّدت هذه العدوى لوحة بلهاء : في عواصم أوروبا ، هناك شوارع كاملة من الحوانيت ، مخصصة للمصنوعات الذهبية ، والأحجار الثمينة ، ومختلف "أدوات الزينة" التافهة . والتي تُهدر لصنعها طاقات الطبقة العاملة الغالية . والطبقة العاملة ، نفسها تعيش جائعة مستلبة امكانية تطوير متطلباتها ، مواهبها ، وقدراتها . إن نزعة البرجوازية الصغيرة ، للتراكم التافه للمتلكات ، نقلت الملكية الشخصية المريضة الى الطبقة العاملة .

يجب ألا يُعتقد ، أني ضد الرفاه ، عموماً ، كلا ، إنني مع الرفاه للجميع ، ولكنني ضد عبادة المال . فاصنع الأشياء على أفضل شكل تريده وكما تسمح الامكانات ، كي تكون متينة ، وتوفر العمل الإضافي المهدور ، ولكن لاتجعل من حذاء ، أو طاولة ، أو كتاب صنعته بنفسك "صنماً" فهذه "وصية" جيدة ، وكم يكون جيداً ، أن يستوعب عمالنا الشباب هذه الوصية .

إن الذين يعبدون الخيرات المادية ، والحياة المريحة الهادئة (غير آبهين لأي أمر ومهما يكن) حتى في أيامنا هذه التي تنهار فيها الثقافة البرجوازية برمتها ، ومايزالون يعتقدون بإمكانية وجود حياة مستقرة هادئة و"جميلة" . واعتقد ، أنه لاداعي للتكرار : إن أساس هذا الإيمان ـ هوحب الذات المغروس في الناس من الماضي ، والذي عززته الكنيسة و"رجالها القديسين" ، هؤلاء الذين يعدون نماذج حية لمحبي الذات ، وفي الوقت نفسه ، كارهي البشرية .

لقد أكدّ البرجوازي الحكيم الالماني ، (عمانويل كانت) في الفلسفة الدينية ، حب الذات وبكلام آخر الفردية والذي يعد تفكيره تفكيراً ميكانكياً ، وغريباً ، عن الحياة ، كجثة الميت .

فهذا الايمان ، انصرم عصره ، وهو ككل ايمان ـ أعمى ولكنه ، يلجم الناس ، ويلهمهم بقناعات زائفة فارغة ، إن كل واحد منا هو "بداية العالم ونهايته" ، لابل هو "الفريد" ، والأفضل ، والأغلى ، ففي هذا التقدير الذاتي ، تتجلى بوضوح تأثير الملكية الخاصة ، التي توحد القوى البدنية ، والميكانيكية عند الناس ، من أجل الهجوم والعدوان ، ومن أجل استغلال اولئك الذين من غير حماية ، أو حمايتهم ضعيفة ، وهي ـ حسب الضرورة ، وحسب "قانون" المنافسة ، تبقي كل واحد منهم في وضعية الدفاع عن النفس ، ضد "جاره" الذي هو صاحب ملكية وشريك في الرأي ذاته . والملكية الخاصة ، توحّد البرجوازية خارجياً ، من أجل العدوان ، وتمزقها داخلياً من أجل الدفاع عن النفس ، ضد بعضهم بعضاً "كل واحد لنفسه" . وهذا يخلق الحياة الذئبية ، (كحياة الوحوش المفترسة) . إن أخلاق أصحاب الملكية الخاصة ، ينطبق عليها المثل القائل : " الانسان ذئب لأخيه الانسان" .

إن الفردية الحيوانية ـ مرض ، نقلت البرجوازية عدواه إلى العالم كله ، والذي تموت هي به . كما نرى . ومن البداهة ، أنه كلما كان موتها أسرع ـ كان ذلك أفضل للشعب الكادح على الأرض ، فبقوته وإرادته يسّرع بهذا الموت .

إن البرجوازية الصغيرة بالنسبة للكاتب السوفييتي ، هي موضوع صعب ، خطر بسبب قوتها على العدوى ، ونقل السم . فكاتبنا الشاب "المبتدئ" لم يلحظ البرجوازي في "قوته ومجده" ، فهو يعرف البرجوازية الصغيرة ، من خلال الكتب فقط . وهي معرفة سيئة ، كذلك يعرف البرجوازية الأوروبية ، التي تعيش حياة مريضة ، مضطربة مختلة التوازن من خلال الكتب والصحف أيضاً . ففي بلاده ، مازال الكثيرون من أبناء البرجوازية الصغيرة الممزقة يعيشون ، وهم يدعون بخبث ، انهم انقلبوا "حيوانات اجتماعية" . ولقد تسللوا الى صفوف الشيوعيين ، وهم يدافعون عن "الأنا" بكل الخبث والنفاق والزيف الموروثين من الماضي . وهم بوعي أو من غير وعي ، يخرّبون ، ويتقاعسون ، ويلتمسون النفع لأنفسهم فقط ، ومن

وسطهم ، يخرج المحربون ، والمضرون ، والجواسيس ، والخونة . لقد كتبوا عن حثالة الانسانية ونفايتها ، التي قُذفت بعيداً عن بلادنا ، ومازالوا يكتبون ما فيه الكفاية ، من الكتب . ولكن كل هذه الكتب تقريباً ليست جيدة . بل تصور العدو بشكل سطحي وضبابي ، وترتكز على "مناسبات وحوادث معينة" تحمل طابع النكت . إذ لايشعر المرء فيها "بالتاريخ" الضروري في المؤلفات الأدبية ، وفي المهمة التربوية الاجتماعية ، غير الرفيعة لهذه الكتب . ومن البديهي ، خلال خمسة عشر عاماً ، لن تخلق كتّاباً أمثال موليير ، وبلزاك . أو ، أن تربي مثل مؤلف "المفتش" أو مؤلف "السادة آل غولوفلوف" . ولكن ، في البلاد ، خلال المدة نفسها ، التي شيدت فيها الطبقة العاملة ، مدناً جديدة ، ومعامل عملاقة ، وشرعت بتغيير جعرافية أرضها ، إذ ربطت البحار بالأقنية ، وروت الصحارى ، وعمرتها ، وأغنت الدولة بالثروات الطبيعية الغنية المكتشفة . في البلاد ، حيث فرزت فيها الطبقة العاملة من بين صفوفها مئات المخترعين ، وعشرات العلماء ، إذ في كل عام يخرج إلى الحياة تقريباً ، نصف مليون من الشباب ، الذي حصل على شهادات التعليم العالي ، في هذه البلاد يمكننا ،أن نطالب الأدب بالكثير .

لقد حقق (الأدب الشاب) ، في هذه البلاد انجازات كبيرة ، وستغدو احاطته بالواقع أكثر شمولية ، وبديهياً ، نتمنى أن يصبح أكثر عمقاً . وسيصبح أعمق اذا ما تفهم الكتاب الشباب حاجاتهم لتلقي العلم ، وتوسيع دائرة معارفهم ، وتطوير قدراتهم ومواهبهم بدراسة تكنيك المهمة الثورية الهامة التي اختاروها .

وعند الخضوع لقوتي جذب التاريخ - الماضي البرجوازي ، والمستقبل الاشتراكي ، فإنه من الطبيعي ، أن يتذبذب الناس : فالطبيعة الانفعالية ، تشدهم للماضي ، والعقلية تشدهم للمستقبل . إنهم يصخبون بأصوات عالية - ولكن الانسان لايحس بالثقة والطمأنينة ، بأنهم قد اختاروا بشكل حازم ، وحاسم ، الطريق المحددةومع أن التاريخ قد بيّنها ، وأشار إليها بوضوح .

فالفردية المهترئة المفلسة ، مازالت تعيش وتنشط ، وتظهر من خلال الطموح البرجوازي ، ومن رغبتها في القفز إلى الأمام ، إلى مركز بارز وفي العمل "الاستعراضي" غير المخلص ، والمشوهه ، للبروليتاريا ، والذي يسيء الى سمعتها .

وخاصة في العمل الذي يتطلب "مقاومة أقل" . في الأدب ـ هذا الخط ، هو خط انتقاد العلاقات المتعلقة بالماضي . فوجه الماضي القبيح ،كما ذكرنا أعلاه ، لايعرفه الكتاب الشباب إلا بشكل نظري وسطحي . فليونة النقد الخفيف للماضي ، يصرف الكتاب عن ضرورة تصوير ظواهر الحاضر الهامة .

إن القدرة عند الكتاب الشباب ، لاتزال غير كافية ، من أجل تعليم القارئ الحقد على الماضي ، ولهذا السبب ، لايستطيعون أن يبعدوه عن ذلك الماضي ، بقدر ما يذكرونه به على الدوام . ويبرزونه ، ويؤكدونه ، ويثبتونه في ذاكرة القارئ .

ولكي نفضح خساسة الماضي ، وقذارته ، ونسلّط الضوء عليه ، ونفهمه تماماً ، فإنه من الضروري ، أن نطوّر قدرتنا ، بحيث يصبح بوسعنا أن ننظر إليه من قمم انجازات حاضرنا ، وأهداف مستقبلنا العظيمة . فوجهة النظر هذه ، يجب أن توقظ روح الحماسة ، والفخر ، والفرح ، الذي يعطي أدبنا نغمة جديدة ، ويكون الاتجاه الجديد ، الضروري لنا ـ ألا وهو ـ الواقعية الاشتراكية ، والذي من البديهي ـ أن لايخلق إلا من وقائع التجربة الاشتراكية .

نحن نعيش في وطن سعيد حيث يوجد من نحبهم ونحترمهم . ويجب أن ينطلق الحب عندنا ، من مشاعر الاعجاب للانسان أمام طاقته الابداعية . ومن احترام الناس المتبادل لقوتهم الجماعية التي لاحدود لها والتي تخلق الاشكال الاشتراكية للحياة ؛ من الحب للحزب الذي هو قائد الشعب العامل في الوطن كله ، ومعلم البروليتاريا في العالم .

بلزاك

يسعدني دائماً ، أن أتذكر ابداع بلزاك ، كعابر السبيل الذي يسير في واد من غير ذي زرع ، طويل وممل ؛ وفجأة ، يتذكر بقعة قريبة فيها ما فيها ، من الجمال والخصب ، والغنى ، والقوة .

كان عمري ثلاثة عشر عاماً ، عندما قرأت أول كتاب فرنسي . وكان ذلك الكتاب ، هو كتاب إدمون غونكر "الأخوة زيمغانو" . والكتاب ، قصة مؤثرة ، مثيرة للعواطف عن فنانين ، حكمت عليهم الأقدار ، حكماً مبرماً بالوحدة ، والعيش في حلقة ضيقة شوهت أرواحهم ، لمجرد الطرافة ، وحب الاستطلاع .

هذا الكتاب الرائع ، هزّني ، واستصرخ مشاعري الانسانية الحزينة ، وألهمني إلى الأبد . وخلق عندي نزعة لحب كل الناس الذين يقدمون للعالم أغلى ما لديهم - أرواحهم .

حينئذ ، أيقظ غونكر عطشي للتعرف على الأدب الفرنسي ، الذي كنت قد عرفت عنه قليلاً ، وبشكل متقطع ، عن بلد الفرسان وبلد الأبطال . ورحت أسأل معارفي الطلاب ، عن الكتاب الفرنسيين ، وطلبت إليهم أن يأتون بكتب فرنسية مترجمة . وقيض لي أن أهضم مجلدات الأب دوماس الكثيرة وبونسون ويوتيرّرايللا ، بواغوبيا ، زاكونيه ، غابوريو ، كاسافيه دي - مونتبين ، وعشرات المؤلفين الآخرين ، ومن بينهم وقع بين يدي مجلد صغير من مجلدات بلزاك ، وكان ذلك المجلد ، هو روايته "الجلد المسحور" . أذكر بكل جلاء ووضوح ، المتعة التي لاتوصف ، عندما قرأته ، وخاصة ، الصفحات التي يصف فيها دكان (الأنتيكات) العتيقة- هذا الوصف ، يبقى عندي ، من أعظم نماذج النحت بالكلمات . . والمكان الآخر من هذا هو الحوار الذي أذهلني أيضاً بصنعته الفنية- هوالحوار في الوليمة ، اذ

استخدم بلزاك عبارات متقطعة لذاك الحوار ، الذي دار حول المائدة راسماً الوجوه والطباع بشكل مثير ومنقطع النظير .

وصرت أبحث عن بلزاك .وكان الكتاب الثاني الذي قرأته له هو (pere goriot)- (الأب غوريو) . فهذا الكتاب جعلني انتصر بشكل نهائي ، وشعرت بنفسي زمناً طويلاً ، أني راستينياك ، الذي يهددالعالم ، كم أجل كرامة الانسان المداسة ، المهدورة ، ومن أجل الأوجاع والآلام ، التي تملأ صدور الناس . عشت في تلك الأيام ، بشكل سيء جداً . ولكن ، صحتي كانت جيدة ولهذا اصبحت رومانتيكياً . قرأت "الكوميديا الانسانية" ، عندما كان عمري عشرين عاماً ، ولقد وجه هذا الكتاب صفعة قوية جداً الى رومانتيكيتي غير الناضجة ، واحسست بعبقرية بلزاك ، وأحببته بحرارة ، كما يّحب المعلم والصديق .

بعد سنتين ـ ثلاث ، ظهرت في روسيا ترجمة المؤلفات الكاملة لبلزاك . فقرأت كل مؤلفاته مرتين ، وعندها ، فهمت عظمة هذا الكاتب ، وحجم موهبته الملحمية ، التي سحرتني وفتنتني ، وأدهشتني . فرحابة كتاباته ، وقوة أفكاره ، وجرأتها ، وصدق كلمته ، وموهبته ، في رؤية المستقبل ، قد تحققت في هذا العصر الراهن ، وجعلت منه واحداً من أعظم المعلمين في العالم .

فشكسبير ، وبلزاك ، وتولستوي ، بالنسبة إلي ثلاثة أعلام عظيمة ، دفعوا الانسانية إلى الأمام . فلولا بلزاك مااستطعت أن أفهم فرنسا ، تلك البلاد التي سارت دائماً ، ومازالت تسير في مقدمة البشرية . والتي تصنع في هذا المجال ، أوغيره أشكالاً جديدة للابداع ، وأشكالاً جديدة للحياة . إنها البلاد التي أحبها ، والتي يحمل لها العار أصحاب المصارف ، أولئك الذين اضطررت أن أتحدث عنهم ، ذات مرة ، إذ أثاروا غيظي ـ فأعمال البرجوازية الفرنسية . المعادية للثقافة ، المعادية للانسانية ، أرادت أن تعرقل مسيرة الشعب الروسي إلى الحرية- ولكن ، هذه الأعمال لم تعتم أبداً ، على تألق أسماء مثل هيجو وبلزاك ، وفلوبير ،الأبناء الحقيقيون لفرنسا ، بلد الأعمال العظيمة ، والأسماء العظيمة .

ليس بوسعي أن أصرف النظر عن هذا ولاأعرف ، كم أنا مدين شخصياً لبلزاك ، وأن تأثيره ، بشكل عام في الأدب الروسي كبير . وهذا من غير شك ، قد

أقرّ به وشهد عليه تولستوي ، الذي سألني ذات مرة :

ـ لمن تقرأ أكثر من الأخرين ؟

فذكرت له من أقرأ لهم . فقال :

ـ هذا حسن ، لكن أقرأ للفرنسيين أكثر من الجميع . بلزاك ، مثلاً ، الذي تعلمت عليه الكتابة . اقرأ ستندال ، فلوبير ، وموباسان ، إنهم يجيدون الكتابة . إن الإحساس بالشكل الفني للكتابة عندهم ، متطور جداً ، وعندهم قدرة التركيز على المضمون ، وفي صفهم يمكن أن تضع ديكنز فقط . ويمكن أن تضع تيكري ، فلو أني لم أقرأ (شارترز بارسكايا) لستندال ، ما استطعت كتابة لوحات "الحرب والسلم" بهذا أنهي رسالتي اليك .

بلزاك ـ إنه موضوع لانهاية له ، إنه طاقة خارقة بالنسبة إلي ، ولهذا ، فإن ذكراه تمتزج بحياتي ، وبأيامها الصعبة وهذا يثير اضطرابي . وأود القول أيضاً ، أن الكتاب لعب في حياتي ، دور الأم ، وأن كتب بلزاك عزيزة جداً على قلبي ، وأعز عندي من الأخرين ، وأكثر من ذلك ، إني لأشعر دائماً بقوة عظيمة ، وسرور كبير ، في ابداعاته ذات المعارف القيمة ، والرائعة الثمينة للحياة .

عن الفن

من المعروف والمسلم به ، أن فن الكلمة ، ولد في قلب العصور السحيقة . نتيجة أعمال الناس . وسبب ظهور هذا الفن ، هو رغبة الناس بتنظيم تجاربهم العملية في أشكال فنية ، بحيث تكون أسهل مثالاً للرسوخ في الذاكرة ، وعن طريق "الأمثال" و"الأقوال المأثورة .

لقد تبع فن الكلمة العمل ومباشرة . وفي هذه الكلمة ، تفتحت بدايات العلوم ، حول أساليب الصراع ، والمعطيات الضارة ، ومقاومة الطبيعة . ومن البديهي ، ان فن الكلمة ، كان يجب أن يظهر قبل قرون من ظهور الديانات البدائية ، والبرهان على ذلك ، أن الناس أعطوا الكلمة لبوساً سحرياً قوياً ، مؤثراً في الوحوش المفترسة ، وفي ظواهر الطبيعة .

ومناقشة هذا الأمر ، من وجهة النظر المنطقية المستقيمة الشريفة ، والتي تلهم العقل ، تؤكد أن العمل هو معلم ومنظم لهذا العقل . ومن الحق أن نؤكد ، أنه في تلك الحقبة الزمنية التي تعلم الناس فيها تقطيع الكلام إلى كلمات اعتبروا أنفسهم أكثر حكمة وعقلاً من الحيوانات .

العمل ، النار ، الكلام : هذه هي القوى التي بواسطتها استطاع الناس أن يبنوا الحضارة (الطبيعة الثانية) . ولم يعد الكلام مصدراً للتفاهم بين الناس فقط ، في المجتمع الضيق البدائي ، بل وأيقظ فيهم الفخر ، والفرح بنجاح أعمالهم ، وانعكس أيضاً على انتاجية عملهم .

إننا نحن مواطني الجمهوريات الاشتراكية ، تزداد قناعتنا ، يوماً بعد يوم ، أنه كلما كان عملنا الحر مثمراً ، كلما تطور الانسان بشكل أسرع وأقوى .

يصور تاريخ الثقافة البرجوازي ، حياة الناس البدائيين ، على أنهم عاشوا في رعب وقهر مستمرين أمام الظواهر الغامضة وغير المفهومة ، ويصور الإنسان مستغرقاً

في تفكيره حول النار ، والنوم ، والموت ، وهذا التأكيد يتطلب إعادة النظر ، والتدقيق ، كما كل البراهين البرجوازية حول سير تطور البشرية . فالحكايات والخرافات القديمة ، لاتعكس رعب الإنسان أمام الطبيعة ، بل بالعكس ، تؤكد انتصار الإنسان عليها . وعن قوة الكلمة السحرية القادرة على قهر مقاومة الشر ، وظواهر الطبيعة بعزيمة العمل ومسيرته ؛ فالزلازل ، والطوفان ، وكل الكوارث الطبيعية عموماً ، لم تحصل يومياً ، ولم يعانِ منها كل جيل . والحيوانات ، لم تعرف ، أن الإنسان يصطادها من أجل لحومها ، ولم يعانِ "متوحشو" افريقيا واستراليا ، وزيلندا ، الرعب في أثناء لقاءاتهم الأولى مع الأوربيين ، بل تقدموا منهم بسلام وثقة .

ظهرت تراجيدية الحياة الاجتماعية ، وشناعتها عندما انقسم الناس إلى سادة وعبيد . ولحظة الانقسام هذه ، كانت لحظة ظهور الديانات . إن المنظرين ، ورجال الدين ، وناشري الدعاية ، الذين يروجون الحياة التراجيدية وشناعتها ، خدموا وساهموا بانسلاخ الأفراد عن الجماعة . وهم ، في أيامنا هذه ، مازالوا مستمرين بنشر دعاياتهم ، التي تبرر تقسيم الناس إلى سادة وعبيد ، وإلى مذنبين ومؤمنين صالحين ، وإلى ناس سيتعذبون بنار الجحيم أو سينعمون بملذات الجنة .

لم يستطع الناس أن يعيشوا دون أفراح . فقد عرفوا كيف يضحكون ، وغنوا الأغاني المرحة ، وأحبوا الرقص ، ومن جراء فرحهم بنجاحات أعمالهم ، أدخلوا الغناء إلى طقوسهم الدينية ، وكذلك الرقص واللعب ، حتى كنيسة المسيح المتجهمة ، القاسية ، كانت مضطرة في أعيادها ، على ادخال الأغاني . .

لقد حمل الفن والفرح ، خاصة إلى حياة العبيد الشاقة الصعبة . والعبيد بالذات ، هم مبدعو الجمال الذي نراه على المزهريات والخزفيات ، وذلك ما نستدل عليه بالزخارف الذهبية القديمة ، ومن الأسلحة ، والنحت ، والمعابد المصرية القديمة والاغريق ، والمكسيك ، والبيرو ، والهند ، والصين ، وكاتدرائيات أوروبا في القرون الوسطى ، ومن السجاد الشرقي الخ . . .

من الذي حوّل العمل اليومي الشاق المضني إلى فن . . في البداية ، بيديه ، وبعدها على الآلة ؟ إن مؤسسي الفن ، كانوا هم الفخارين ، والحدادين ، وعمال

النسيج ، والحائكين ، والصاغة ، والنحارين ، وعمال البناء ، والدهانين ، والخياطين ، والخياطات ، والنقاشين على الخشب ، والعظام ، وعموماً ، الحرفيون ، والناس الذين صنعوا الأشياء بفنية ، من أجل غبطة عيوننا ، والتي تملأ المتاحف .

ما الذي دفع الناس إعطاء الأشياء العادية ، النافعة (اللوازم البيتية) الموبيليا ، الأواني ، الأشكال الجميلة ، ومختلف النقوش المذهبة ؟ وماذا دفع الناس عموماً كي يتزينوا ؟ إنها النزعة إلى صنع الشكل الأكمل . إنها نزعة بيولوجية . يكمن في أساسها رغبة الإنسان في أن يربي في ذاته الليونة ، وقوة العضلات ، وخفة الحركات ، ورشاقتها ، فهذه الرغبة بالتربية البدنية ، مجسدة بوضوح في بلاد الإغريق القديمة ، في فن النحت ، بشكل منقطع النظير .

يعرف الناس ، أن الصحة ترافق الإحساس بغبطة الحياة ، وأن الناس العاملون على تغيير جوهر المادة ، وظروف الحياة يحصلون على قمة المتعة والفرح . فرح المبدعين بالجديد وغير العادي .

ويحب الناس الأصوات المنتظمة موسيقياً ، والألوان الواضحة ، ويحب الناس أن يجعلوا ما حولهم أفضل ، وأجمل ، وأكمل مما هو عليه . فالفن يضع هدف المبالغة الفنية ، من أجل الأفضل ، ويبالغ باظهار الأسوأ ، وكل ما يضر بالإنسان ، ويشوه الإنسان ، كي يوقظ الاشمئزاز فيهم ، وكي تحرقهم الرغبة ، للتخلص من كل عار الحياة ورزائلها ، التي تصنعها البرجوازية البشعة السافلة . في أساس الفن يكمن نضال "مع" أو "ضد" . ولايمكن أن يكون هنالك فن لامبال ، لأن الإنسان ليس آلة تصوير ، وهو "يثبت" الواقع ، أو يؤكده ، أو يغيّره ويحطمه .

في عصر طفولة الحضارة ، تسابق الناس ، تسوقهم الرغبة ، لتحسين أنفسهم ، ونتيجة ذلك ، انقسم المجتمع إلى طبقات ، وأصبح العمل عبودياً ، مقيداً ، والإبداع ، مادة للبيع والشراء . وانقلب التنافس الشريف إلى مزاحمة الصناع ، ومنافستهم من جراء الصراع من أجل كسرة الخبز ، والمنافسة ، لزيادة ، كمية الأشياء "للسادة" خفضت نوعية الأشياء . فالعمال صنعوا ، الآلات البدائية الأولى من أجل أن يجعلوا أعمالهم أهين ، ولزيادة أرباحهم أيضاً . ولكن الآلة بين أيدي صاحب العمل أصبحت عدواً للعمال ، وفي أيدي العمال معاوناً له ، فهي توفر جهده ،

ووقت عمله .

وهكذا عشنا إلى زمن ، رأينا فيه : تطور التكنولوجيا . في البلدان الرأسمالية ، التي سببت العطالة للملايين ، هذه العطالة التي ترعب البرجوازية الصغيرة في أوروبا ، التي باتت تصرخ : "فلتسقط التكنولوجيا ، للوراء إلى العمل اليدوي" . وهذا نداء لايقاف نمو الحضارة ، نداء للرجوع إلى أشكال العبودية في القرون الوسطى . هذا زعيق سكرة الموت للرأسمالية .

لقد وضعوا أمام ابداع الإنسان ـ العامل الحر ، العراقيل الهائلة . ولكن دائماً ، كان هنالك أناس عاشوا حتى أيامنا (دونكيشوتيون) ، أولئك الذين لم تنطفئ الرغبة القديمة عندهم ، بصنع الأشياء بأية طريقة جميلة ، وغير عادية ، أناس كهؤلاء ، قليلو العدد . ولكني التقيت بعضهم في مناطقنا ، أتذكرُ جيداً ، أني صادفت أحدهم في أسفاري . إذ التقيته على باخرة بين (قازان) و (نيجني) . كان مسافراً إلى معرض عموم روسيا عام ١٨٩٦، وكان صغيراً نحيلاً ، أصلع ، له عيون ، كعيون الفأر ، ويبدو غاضباً أصفر ، كاليرقة . وله لحية كالكتان ، يمشي بجزمة مهترئة في ممر الدرجة الثالثة ، وينظر إلى المسافرين بحذر ، وبصوت لايكاد يسمع ، كان يعرض عليهم :

ـ اشتروا لعبة !

كانت اللعبة خشبية ، من جذر شجر العرعر ، واللعبة كانت عبارة عن رجل على رأسه قبعة ، يرتدي بنطالاً ، ويتكئ بكتفه على شجرة ، ماسكاً بيديه عصا . وجهه ينتفخ شراً ، يعض شفته السفلى بأسنانه ، والفم منحرف . كان الوجه مصنوعاً بدقة ، والجسم منحوت من وسطه فقط ، وكأنه نبت في الشجرة . وجهه ، يعبر عن لامبالاته ، وفي لامبالاته هذه ، واضحة دقة عمل النحات ، وذوقه ، ومعرفته بتشريح جسم الإنسان . طلب ثمن هذه اللعبة (تمثال الرجل) روبلين . ولكن المسافرين عرضوا عليه (١٥ كوبيكاً (قرشاً) وعشرين كوبيكاً . لكنه ، تابع سيره بصمت .

وقال أحدهم في إثره :

ـ يتلهى بالتوافه هذا العجوز .

ـ ومنحوته بشكل رديء ـ أضاف أحد الركاب . .

كان معي روبل ونصف ، لكن ما أردت أن أزيد غبن العجوز . وسألته :

ـ قطعتها بنفسك ؟ فاندهش وأجاب بسؤال :

ـ طبعاً ، ومن يكون غيري ؟ ثم قال :

ـ لاأمس شيئاً ليس لي .

وذهب إلى مؤخرة السفينة ، جلس في الزاوية ، وسحب من الكيس جذراً ، واستل من جيبه سكيناً حادة . فجلست بالقرب منه ورحت أحدثه ، فأراني أربع لعب أخرى تمثل : رجلاً بطيناً ، أصلع ، وبلحية حوارية ، حافياً وبقميص طويل من غير زنار . والرجل ينظر إلى الأعلى . راسماً إشارة الصليب ، يده منكمشة على الكتف الأيسر ، فاغراً فمه الأدرد ، ثم أراني راهباً طويلاً ، بأنف كبير ، مضيقاً عينيه . وأراني أيضاً امرأة عجوزاً ، مشعثة الشعر ، تهددبقبضتها شاباً سكيراً على رأسه قبعة من قبعات النبلاء . والتحف الخشبية الخمسة ، تحمل ميزة واحدة ، كانت جميعها مشوهة بادهاش . سألته : لماذا تصنع الناس بشكل مضحك . وأنت معلم بارع . فنظر من زاوية عينه ، وأجاب من غير حماس :

ـ أنا أنحت بشكل طبيعي ، الناس الذين أعرفهم ، ومنذ ثلاثة عشر عاماً ، وأنا أصنع هذا ، عمري سبع وخمسين سنة ، ويحسبونني أحمق طبعاً . ولكن هذا ، لايزعجني ، بالعكس ، هذا لفائدتي . عندنا ، لايزعجونك ، عندما تعيش أبله . ثم قال لي :

ـ بعض القطع الخشبية ، أصنعها أسوأ مما هي عليه في الواقع ، وبعضها أفضل مما هي عليه . الناس الطيبون ، أصورهم بشكل أفضل وأجمل . والسيئون ، لا أخاف من أن أصورهم ، كما هم مشوهين .

كان يتكلم ، وكأن لا رغبة له بالكلام ، وكان ينظر إلي شزراً من تحت شعرات حاجبيه المنتصبة ، وأخذ يقيسني بنظراته ، ولكأنه يتأكد : هل أصغي إليه بانتباه ؟ اذ شعرت أنه بحاجة لمن يستمع إليه . . وأنا ، بسهولة ، جعلته يحدثني عن الحياة الحزينة ، المهانة ، التعسة (لولد متروك) . بدأ حياته معاون راع ، وبعدها خدم عسكرياً في سرية غير محاربة ، ومن ثم خدم سنة ونصف ، في كتيبة الانضباط . وبعدها ، عمل قليلاً في ورشات النجارة .

ـ وبما أني أميل إلى مشاكسة الناس ، لم أعطهم ظهري مطية لهم .

عموماً ، هذه كانت حياة عادية لفنان وحيد ، ولع بشيخوخته بالابداع ، الذي لم يجد من يقّيم له ذلك .

رأيت عدداً غير قليل من أناس كهؤلاء ، وربما عززوا الثقة ، بأن البروليتاريا ، يمكن أن تقدم فنها ، وثقافتها ، مع أنها لازالت تقع في أسر البرجوازية . فكم من الناس الموهوبين ، أضاعوا مواهبهم الأصلية ، عبثاً ، ومجاناً ، وفي عمل رخيص ليحنوا منه قروشاً قليلة ، ويكون هذا العمل سبباً باخماد العقل ، من أجل البحث بِضِعَة عن كسرة خبز . كان أناس كهؤلاء ، بين عمال تصنيع الخشب ، في (بافولجي) وبين قبائل القفقاز صانعي الاسلحة ، وصانعي الفضة والذهب ، وبين عمال التطريز ، والتوشية بالدانتيلا بين مئات ألوف العمال والعاملات الذين اضاعوا العمر في الصناعات الفنية ، من أجل تزيين حياة كبار وصغار البرجوازيين . فهل كان يمكن أن نفكر ، أنه من خلال صانعي الايقونات ، الحرفة المحافظة ، والأشد محافظة ، في حقل الفن ـ الرسم ، الذي يخدم الكنيسة ، أن هؤلاء الرسامين دفعوا هذه الحرفة إلى حرفة عصرية متميزة ، والتي تخلق الاعجاب حتى في الناس الذين يتسلون ويمارسون الرسم .

لقد سميت الرسم ، فناً محافظاً ، لأن الرسم ، خدم ويخدم مصالح الكنيسة واهتماماتها ، وكذلك الحكايات المصّورة والاخلاق الدينية ، والدعاية التي تمجد صبر المسيح ، وآلامه وبطولاته . لقد خدم الرسم ، ويخدم ، في مضاعفة صور و (بورتريهات) القياصرة والجنرالات ، واصحاب المصارف ، والنساء المغناجات ، والتجار .

إن ثورة اوكتوبر التي نظمها ، وقادها حزب لينين ، عتقت الطبقة العاملة والفلاحين من أسر الرأسماليين اللاإنساني ، وأعطت كل جماهير الشغيلة حقوقها في العمل الحر . ولقد باتت مآثر هؤلاء الابطال في أقل من عقدين بعد سقوط روسيا القيصرية ، الجاهلة ، الجائعة ، الضعيفة ، المهانة ـ روسيا الافطاعيين ، وأصحاب المعامل ، واصحاب المصارف ، وانقلبت إلى بلد قوي ، هو اتحاد الجمهوريات الشقيقة ، إلى بلد تحقد عليه كل برجوازية العالم ، وتبغضه ، لكنها تحترمه ، وتخاف

منه .

وستظهر أكثر فأكثر ، نتائج هدا الانتصار ، انتصار ثورة البروليتاريا ، التي يقودها الحزب ، والعمل الدؤوب من قبل كافة طبقات الشعب في جمهوريات اتحاد بلاد السوفييت الاشتراكية ، وبقوة هائلة تنكشف المواهب الجماعية لاطفالنا ، ففي كل يوم يظهر مئات الموسيقين الصغار ، والطيارون الشراعيون ، وأبطال صغار ، والذين بجرأة كبيرة ينخرطون في النضال ضد الاعداء .

سيرغي يسنين

في العام السابع أو الثامن ، وفي كابري ، روى ستيفان جيرومسكي لي وللكاتب البلغاري بينكو تودوروف قصته عن صبي فلاح ، وصل إلى مدينة كراكوف ، وتاه فيها . وقد دار في شوارعها ، مدة طويلة ، ولم يستطع بأي شكل من الاشكال ، أن يصل إلى تخوم حقله الرحب الذي اعتاده . وأخيراً ، عندما استولى عليه شعور أن المدينة ، لاتريد أن تطلق سراحه ، ركع على ركبتيه ، وصلّى ، ومن ثم قذف بنفسه من على الجسر ، في نهر " فيسلا " ، آملاً ، أن النهر سيحمله إلى الضفة الرحبة التي يريد . لم يتركوه يغرق . لكنه مات على أثر الصدمة .

هذه القصة البسيطة ، ذكرتني بموت سيرغي يسنين . .

رأيت يسينن أول مرة ، في عام ١٩١٤ . اذ التقيته ، في مكان ، ما مع كليوف . وقد خيل إلي آنذاك ، انه صبي أو ١٥ - ١٧ سنة ، أجعد الشعر ، أشقره، وكان يرتدي قميصاً أزرق وجزمه ، فذكرني بصور ساموكيتش سودوفسكي الأنيقة ، التي صورت أطفال الاقطاعيين الذين كانو متشابهين .

كان الليل ، في ذلك الصيف خانقاً جداً . كنا ثلاثة ، تمشينا في البداية ، في شارع " بارسينا" ، ومنه انعطفنا إلى جسر سيمونفسكي ، توقفنا على الجسر ، ننظر إلى المياه الداكنة السوداء . وماعدت أذكر عما تحدثنا . من المحتمل ، أننا تحدثنا عن الحرب . التي كانت قد بدأت .

ولّد يسينن عندي انطباعات متواضعة ، غير واضحة ، صبي حائر مرتبك ، تحس أنه هو نفسه لديه شعور بأن لامكان له في بطرسبورغ الكبيرة . والغلمان النظيفون - كهؤلاء - سكان مدن ، مثل : كالوغي ، أريول ، سيمبرسك ، تامبوف ، تراهم في حوانيت التجار ، والباعة ، وصناعاً عند النجارين ، أو في فرق الرقص ،

وفي جوقات الغناء . .

وبعد ذلك بزمن ليس قليلاً ، وعندما قرأت أشعاره الرحبة ، الساطعة ، القلبية والمدهشة ، لم أثق بأن الذي يكتب هذه الاشعار ، هو ذلك الصبي ، الأنيق كالمصّور في اللوحات ، مع الذي وقفت ليلاً على جسر سيميونفسكي ، ورأيته كيف كان يبصق من بين أسنانه ، في النهر الأسود . بعد ست ـ سبع سنوات ، رأيت يسينن في برلين ، في شقة آلكسي تولستوي . فمن الصبي ، أجعد الشعر ، الذي يشبه اللعبة ، بقي عينان تلمعان ، وكأنهما احترقتا بالشمس الساطعة الحارقة . نظراتهما المضطربة ، تسقط على وجوه الناس ، نظرات متغيّرة ، تارة تنظر باختصار وطوراً تكون حائرة ، عديمة الثقة . وخيل إلي أنه إنسان غير اجتماعي بسلوكه مع الناس . وكان واضحاً ، أنه إنسان يسرف في شرب الخمرة : خدان منتفخان ، بياض عينيه أحمر ملتهب . بشرة وجهه ، وجلد رقبته رمادية مبيضة . كالذي لاينام جيداً ، ولايخرج إلى الهواء إلا قليلاً . أما يداه ، فمضطربتان وكفاه ، كما كفي ضارب الطبل تماماً . وكان قلقاً ، مشتتاً ، كالذي نسي أمراً هاماً ما ، ولم يعد يتذكر ما نسيه . كان بصحبته آيسدورا دونكان . وكوسيكوف . ـ ايضاً شاعر ،ـ قال يسنين ـ بهدوء ، ببحة في الصوت .

وقف كوسيكوف بالقرب من يسنين ، بدا لي ، أنه وقح جداً ، وزائد في الحضرة . كان مسلحاً بقيثارته ، الأداة الأثيرة عند الحلاقين ، واعتقدت أنه لايستطيع العزف عليها .

كنت قد رأيت دونكان على خشبة المسرح ، منذ عدة أعوام انصرمت ، قبل هذا اللقاء ، عندما كتبوا عنها ، كأعجوبة ، فأحد الصحفيين كتب عنها باندهاش : ”ان جسدها الرائع الذي لامثيل له ، يحرقنا بلهيب المجد“ . ولكنني ، لاأحب ، ولاأفهم الرقص النابع من العقل ، ولم يعجبني ، كيف أن هذه المرأة حشرت نفسها على المسرح .

أتذكر ـ أنها كانت حزينة ، وبدا لي أنها كانت تعاني البرد القاتل ، وهي نصف عارية ، تركض كي تتدفأ قليلاً ولتهرب من مخالب البرد .

عند تولستوي ، رقصت أيضاً ، وقد أكلت مسبقاً وشربت فودكا . وبرقصتها

جسدت صراع ثقل عمرها ، مع ثقل جسدها المنهك من المجد والحب . وهذه الكلمات لاتخفي وراءها مايمس بكرامة هذه المرأة ، بل تتحدث عن الشيخوخة اللعينة . إنها امرأة كهلة ، مترهلة ، وجهها أحمر ، غير جميل ، ملفوفة بفستان قرميدي اللون . دارت وتلوت في الغرفة الضيقة ، وهي تضغط بباقة زهر مدعوكة ، ذابلة إلى صدرها ، وعلى وجهها المترهل السمين تجمدت ابتسامة باهتة .

وقفت هذه المرأة ، الذائعة الصيت - المبجلة من الآلاف محبي الجمال في أوربا ، هؤلاء ، الرقيقون الذين يقوّموا فن النحت - جنباً إلى جنب مع هذا الصغير كالمراهق - شاعر ريزان الرائع ، وظهرت بشكل مطلق سافر ، انها لاتليق به ، ولا تلزمه البتة .

إن هذا ليس مختلقاً ، ولست متحاملاً عليها . لا ، بل ، أتحدث عن انطباعي ، في ذلك اليوم الثقيل ، عندما نظرت إلى هذه المرأة ، وفكرت : كيف لها ، أن تحس بمغزى تأوهات الشاعر :

حسناً أن تبتسم للقمر

قاضماً القش على الكومة .

وماذا يمكن أن تقول لها ابياته الساخرة الحزينة :

إني ادخل المتاهة ، ليس من أجل المرأة

ففي الهوى الأحمق ، لاقوة للقلب فيه

تحدث يسينن مع دونكان بالاشارات ، وبتصادم الاكواع والركب ، وعندما كانت ترقص ، كان جالساً وراء الطاولة يشرب نبيذاً ، ويسترق النظر إليها ، من زاوية عينيه . كان ينظر إليها ، ويقطب حاجبيه . ويمكن أنه في هذه اللحظة بالذات ، نبت هذا البيت الذي يجسد ألمه :

لقد احببناكِ . لقد احببناك ، وتلوثنا

ويمكن الاعتقاد أيضاً ، أنه كان ينظر إلى صديقته ، كما ينظر المرء إلى أمر مخيف اعتاده ، ولا يخافه ، لكن ومع هذا يضغط عليه . مراراً مسح على رأسه كالاصلع ، عندما تقرصه ذبابة بجلدة رأسه . بعدئذ سقطت دونكان منهكة ، على ركبتيها ، ناظرة في وجه الشاعر بفتور ، وعلى ثغرها ابتسامة امرأة غير صاحية .

فوضع يسنين يده على كتفيها ، وبسرعة أزوّر عنها ، ومن جديد ظننت : أليس في هذه اللحظة ومضت في خاطره هذه الكلمات القاسية الرقيقة :

لماذا تنظرين كالرذاذ الأزرق ؟
أتودين ضربي على بوزي ؟
ياعزيزتي ، أبكي أنا
سامحيني ، سامحيني

طلبت إليه أن يقرأ شعراً ، فوافق برغبة ، وقف وبدأ الصراح التراجيدي كان في البداية ، وكأنه ممثل مسرحي :

ياأيتها المجنونة ، المسعورة ، ياعكر الدم
ماذا أنت ؟ الموت ؟ !

وبسرعة ، شعرت أن يسنن يقرأ بشكل يهز الاعماق ، وسماعه أصبح صعباً حتى البكاء . ولا استطيع أن أسمي قراءته ، كقراءة ممثل ، أو حاذق ، ماهر بالقراءة ، وكل هذه النعوت ، لاتقول شيئاً عن صفات قراءاته . صدح صوت الشاعر متقطعاً ، وفيه شيء من البحّة ، وبصدق ساطع ، وبشكل رائع ، وبقوة ، وبلهجة مختلفة ، كرر طلب المحكوم بالاشغال الشاقة :

أريد أن أرى هذا الانسان !

وبصوت أروع ، مشخصاً صوت الرعب :

أين هو ؟ أين ؟ ليس من المعقول أنه لايوجد !

لم اصدق ، أن هذا الانسان الصغير يمتلك هذه القوة العظيمة من المشاعر ، ومن القوة التعبيرية الهائلة . لقد اصّفر وهو يقرأ ، حتى انقلبت أذناه رماديتين ، ولوح بيديه ليس على ايقاع الشعر ، اذ انطلق ايقاعه الشعري ، بحيث لايمكن الامساك به . كثقل الكلمات الصخرية ، المتقلبة ، مختلفة الاثقال . وعموماً : صوته المبحوح المتقطع ، إشاراته غير الواثقة ، جسمه المرتعش ، عيناه الكئيبتان الملتهبتان ـ كل ذلك ـ كان كما يجب أن تكون عليه الحال ، في الوضعية المحيطة آنذاك بالشاعر .

وبشكل رائع مذهل ، قرأ سؤال بوغاتشيف ، وكرّره ثلاثاً :

أمَسّكِ الجنون ؟

وبصوت عال وغاضب ، ومن ثم بهدوء وحرارة :

أمَسّكِ الجنون ؟

وفي النهاية ، بصوت جداً مخفضاً ، تأوه يائساً :

أمَسّكِ الجنون ؟

من قال لكم ، اننا منسحقون ؟

وبشكل مدهش ، لا يمكن وصفه ، سأل :

أصحيح ، تسقط تحت ثقل الروح

كما تسقط تحت الحمل الثقيل ؟

وبعد برهة ، تنفس الصعداء ، ودون أمل همس :

ياأيها الاعزاء . . ياأنتم

ياأيها الطيبون . . .

لقد أثارني حتى تشنجت حنجرتي ، وراودتني رغبة بالبكاء . وأتذكر ، أني لم استطع أن أقول له شيئاً من قبيل المديح ، وحتى هو لم يكن بحاجة لمديحي .

وطلبت إليه أن يقرأ قصيدته (عن الكلب) الذي سرقوه وألقوا به في نهر الجراء الميتة .

ـ إذا لم تتعب طبعاً .

ـ أنا ، من الشعر ، لاأتعب ، وسأل غير واثق :

ـ اتعجبكم قصيدة "عن الكلب" ؟

قلت له ، في رأيي ، أنه الأول ، في الأدب الروسي ، الذي استطاع ، أن يكتب بحب صادق عن الحيوانات .

ـ أجل ، أحب كل الحيوانات . وسألته ، إن كان يعرف "جنة الحيوانات" . لم يجب عن سؤالي بل مسح رأسه بكلتا يديه ، وبدأ يقرأ "أغنية عن الكلب" .

وعندما نطق بالسطر الأخير :

انطلقت عينا الكلب

نجوماً ذهبية في الثلج

ترقرقت الدموع في عينيه أيضاً ، بعد هذه الاشعار . فكرت ، أن سيرغي

يسنين ، ليس أنساناً فحسب ، لكنه كمخلوق ، هو هبة الطبيعة الاستثنائية للشعر ، ومن أجل التعبير عن الحب الذي لاينفد ولا ينضب ، وعن "كآبة الحقول" ، والحب لكل من هو حي في الالم ، وأكثر من كل هذه الكائنات ، الانسان . وهنا ، اتضح بشكل ملموس ، عدم أهمية كوسيكوف وقيثارته . ودونكان ورقصها ، واتضح عدم أهمية مدينة برلين المضجرة ، وعدم أهمية كل ماأحاط بالشاعر الروسي الموهوب .

وفجأة ، أصيب بسأم وقرف ، وأخذ يلاطف دونكان ، كما كان على الأرجح يلاطف فتيات (ريزان) وضرب ظهرها بكفه مداعباً ، واقترح علينا الذهاب ، قائلاً : إلى أي مكان ، فيه ضجيج .

قررنا الذهاب مساءً إلى لونارىارك (حديقة القمر) وفيما كنا نرتدي معاطفنا ، قرب الباب ، صارت دونكان ، تقبل الرجال بلطف . وقالت متأثرة ، انه لقرار جيد ، ولا يوجد أفضل من ذلك ، عندها ضربها يسين على ظهرها بفظاظة الغيرة ، وصرخ :

ـ لاتتجرأي على تقبيل الغرباء .

واعتقدت ، أنه فعل هذا ، فقط ، من أجل أن يسمي الناس الموجودين بالغرباء . .

حديقة لوناربارك الرائعة الجمال ، المثيرة انعشت يسنين ، وشرع يركض باسماً من لعبة إلى أخرى ، وأخذ يتطلع كيف يتسلى الألمان المحترمون محاولاً أن يضع السيف في فم القناع الكرتوني ، وكيف ينخلع القناع من على السلم المهتز ، ويقع بثقل على الأرض ، ومن ثم يرتفع عائداً إلى مكانه مترنحاً . كانت أنواع اللعب والتسلية البسيطة كثيرة ومتنوعة لا تحصى . أشعلت النيران في كل مكان ، وصدحت الموسيقى التي يمكن تسميتها "موسيقى من أجل السمان"

ـ تعكرنا ، من هذه التسليات غير الممتعة ، قال يسنين وأضاف : أنا لا أعُيّب (لا أنتقد) .

بعدئذ ، وبمدة ليست قليلة ، قال : إن فعل "عيب" أفضل من فعل "ذم" . واستطرد :

ـ الكلمات القليلة ، دائماً أفضل من الكلمات الكثيرة الركيكة . إن العجلة التي

نظر بها يسنين إلى الملاهي والتسليات أوحت بالفكرة التالية : إن الانسان يريد أن يرمي كل شيء من أجل أن ينسى بسرعة . وفجأة ، توقف قدام (كشك) وكان دائري الشكل ، تصدر عنه اصوات مختلطة ، وسأل بشكل سريع غير متوقع :

ـ اتعتقد ، أن أشعاري ضرورية ؟ وعموماً ، الفن ، أقصد الشعر ، هل هو ضروري ؟ .

كان السؤال في مكانه تماماً ، ـ لوناربارك ، مضحكة من غير شللر . ولكنه لم ينتظر جواباً عن سؤاله ، فقال : فلنذهب نشرب نبيذاً

على الشرفة الواسعة في (الكازينو) ، حيث كان الناس مزدحمين مسرورين ، فجأة ، اكتأب مرة أخرى ، وبدا مشتتاً ، ممتعضاً ، والنبيذ لم يعجبه .

ـ انه حامض وله رائحة الريش المحروق . اطلبوا نبيذاً فرنسياً أحمر ، ولكنه شرب النبيذ الأحمر أيضاً ، من غير رغبة ، وكأنه كان مجبراً عليه . وسمر نظره ساهماً حوالي ثلاث دقائق . إذ كانت امرأة تمشي على حبل مشدود في الهواء ، وقد وجهّوا إليها إنارة بنغالية ، بدت وكأنها تتطاير كالشهب الصاروخية ، ومن ثم تنطفىء وتنعكس في الماء ، وكان ذلك جميلاً ، لكن يسينن همس :

الجميع يريدون الأمر المرعب . وبالمناسبة ، أنا أحب السيرك ، وأنت ؟

لم يثر يسنن انطباعات انسان لاهٍ ، أو مراءٍ ، كلا ، بل كان كالذي ، وقع في هذا المكان المرح المشكوك بمرحه بشكل قسري ، أو حضر " من قبيل المجاملة " أو كالانسان الذي لا يؤمن ، وزار الكنيسة ، وصار ينتظر بفارغ الصبر متى تنتهي الصلاة . .

● **العشق الجنسي والمقدس**

تأليف: فيليب كامبي

● **طريقة مونتسوري في تربية الطفولة المبكرة للأم والمعلمة**

تأليف. إليزابيت ح. هيستوك

● **عين الزهور «سيرة ضاحكة»**

تألف بوعلي ياسين

الفهرس

إصدارات حديثة

- **عمل الدعاة الاسلاميين في العصر العباسي**

تأليف: خيرالله سعيد

- **العنف والمقدس**

تاليف. رينيه جيرار

- **الفن عند الإنسان البدائي**

(دراسة مدعمة بالصور العادية والملونة)

تأليف : يان إيلينيك



دار الحصاد للنشر والتوزيع

دمشق ص ب ٤٤٩٠

هاتف ٢٤٦٣٢٦